مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

مذاهب وشخ

ابن بطوطه

١٦

بقلم
فؤاد بدوى

G
93
.B25
1967

مَكْتَبَةُ
لِسَانِ العَرَب
أ. علاء الدين شوقى
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com
مكتبة لسان العرب
مكتبة لسان العرب
facebook
مكتبة لسان العرب
instagram
مكتبة لسان العرب
twitter

مذاهب وشخصيات

ابن بطوطة

بقلم : فؤاد بدوى

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٥
ابن بطوطه	٩
الكتاب	١١
الرحلات	١٣
الشكل السياسى للمجتمع الاسلامى	٤١
التصوير المجتمعى عند ابن بطوطه	٤٦
حكايات ابن بطوطه	٥٢
أشعار ابن بطوطه	٧٦
الاسلامية فى تصرفات ابن بطوطه	٨٦
ملامح ابن بطوطه الانسانية	٩٠
خاتمة	٩٤
المراجع	٩٦

تمهيد

أتيح للمسلمين فى العصور الوسطى أن يحوزوا قصب السبق فى ميدان الرحلات والاكتشافات(١) وقد شجع على هذه الريادة وعضد هذا الارتياد لبلاد الامبراطورية الاسلامية المترامية الاطراف ـ من حدود الهند شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالا الى صحارى افريقيا جنوبا ـ أسبابا نستعرضها فيما يلى :

١ ـ كانت أنحاء هذا الملك الواسع الذى أسسه العرب تتطلب الدراسة والوصف مما دفع بعض الخلفاء والحكام العرب الى أن يوفدوا مبعوثيهم وسفراءهم الى البلاد الاسلامية والعربية المختلفة لدراسة أحوالها ومعرفة طبائع سكانها وبيان الطرق والمسالك المؤدية اليها تمهيدا لتطبيق أحكام الشريعة بين سكانها ولتوثيق الروابط بين السلطة المركزية وبين حكام الأقاليم ، وقد اقتصرت هذه الرحلات على البلاد الاسلامية .

٢ ـ يحث الاسلام على طلب العلم ويحث على تجشم المشاق فى هذا السبيل ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم « أطلبوا العلم ولو فى الصين » دليل كبير . لذلك كان طلاب العلم يتركون أوطانهم ويسيرون شرقا وغربا وشمالا وجنوبا من اقليم الى آخر يدرسون على مشاهير الأساتذة ويقابلون الأعلام والفقهاء .

٣ ـ كان الحج من أعظم بواعث الرحلات ومن أغنى الينابيع التى زودت المسلمين بالمعلومات ، فان ألوف المسلمين الذين يتجهون الى بيت الله الحرام وقبر رسوله من كل فج عميق من شتى أنحاء الأرض كانوا يصفون عند عودتهم الى بلادهم مشاهداتهم ويروون القصص التى سمعوا،

---

(١) د. زكى محمد حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٦ .

كما كان النابهون منهم واسعو الثقافة يدونون تجاربهم لينتفع بها غيرهم ولتساعدهم على أداء مناسكهم ٠

٤ ـ كان لاتساع نطاق التجارة وانتشار قوافلها وامتداد طرقها بين بحار الصين وآسيا الوسطى وسواحل بحر البلطيق والأندلس وشواطىء المحيط الأطلسى والبحر الأبيض المتوسط وساحل أفريقيا الشرقى وجزر المحيط الهندى وصحارى السودان ـ مما تشهد به الكنوز الوافرة من النقود الاسلامية التى عثر عليها فى روسيا وفنلندا والسويد والنرويج وفى سويسرا وجزر ايرلندا والجزر البريطانية ـ الاثر الكبير فى انتشار وازدهار النشاط الارتحالى ٠

٥ ـ الثراء الذى امتازت به البلاد العربية فى العصور الوسطى ٠

٦ ـ الميل الغريزى عند العرب للبحث والاطلاع ، ولذلك اتخذ كثير منهم السياحة وسيلة للدراسة والوقوف على ما بالبلاد الأخرى من عجائب وغرائب ٠

٧ ـ شعور العربى بأنه فى بلده ما دام فى ديار وبلاد اسلامية ٠

٨ ـ كان للعروبة هيبة فى سائر دول لعالم فكان العرب المسافرون يلقون من كرم الضيافة وحسن المعاملة ما يحبب اليهم الرحلات والأسفار ٠

٩ ـ قدر الدين الاسلامى متاعب السفر فخفف على المسافرين بعض الواجبات الدينية فى الصلاة والصوم « ومن كان منكم مريضا أو على سفر » ، كما أن اباحة تعدد الزوجات سمحت للمسافر بالتزوج فى البلاد المزارة ٠

١٠ ـ كان العالم العربى فى العصور الوسطى يمثل دائما كتلة ثقافية وروحية واحدة على الرغم من وجود بعض المنازعات السياسية ٠

١١ ـ كان العالم العربى كذلك يمثل وطنا حقيقيا لا للمسلمين فقط بل ولمواطنيهم من المسيحيين واليهود ٠

١٢ ـ السفارات الاسلامية الثقافية والاجتماعية تلك التى حفلت بها الدبلوماسية العربية الاسلامية فى هذه الحقبة من التاريخ مثل رحلة ابن فضلان الى جنوبى روسيا ، والسفارة الأندلسية الى أوتو الأكبر ، امبراطور الجرمان ، سنة ٩٧٣ ميلادية ٠

١٣ ـ يعزو بعض العلماء اختراع البوصلة الى الصينيين ، الا ان القرائن تدل على أن العرب أول من استعملوها فى رحلاتهم البعيـــدة ، فضلا على الأسطرلاب الذى ينسب الى العرب اختراعه وصناعته ٠

١٤ ـ وأخـيرا يجـــدر بنـا ألا ننسى الســـعى فى طلب الرزق ورحلات أعلام الفنانين ومهرة الصناع للمساهمة بفنهم فى المشروعات ، بالاضافة الى بساطة العيش ٠

كل تلك الأسباب هيأت للأسفار والرحلات ، فقام من العرب رحالة جابوا أرجاء العالم ، ولم تســـتطع الظروف السياسية كالحروب بين الملوك والأمراء أن توقف رحلات العرب الا فترات مؤقتة ، ثم سرعان ما كانت تعود سيرتها الأولى ٠

ولقد دون المؤلفون المسلمون الكثير فى مؤلفات خاصة بالرحلات ، وأدمجت أخبار بعضها فى كتب التاريخ والبعض الآخر فى كتب تقـويم البلدان ٠

ويكفى أن نذكر أسماء بعض من سجلت أسمـاءهم كتب التاريخ ، لنعرف روادا كبارا مهدوا الطريق ، فهذا (سلام الترجمان) الذى تشبه رحلته الى سور الصين أسطورة خيـالية ، و « ابن وهب القرشى » الذى اجتذبته الصين أيضا مثلما اجتذبت « سليمان السيرافى » ، و«ابن فضلان» الذى قام برحلة الى بلاد البلغار كان فيها مبعوثا من قبل الخليفة العباسى « المقتدر بالله » الى ملك البلغار « كجنيه دينى » ، و « أبو دولف مسعدبن المهلهل » الشاعر الذى أوفد الى الصين ، وهو الذى قال :

ومن كان من الأحـــرار ... يسـلو ســـــلوة الحر
ولا ســيما فى الغربة ... أودى أكثر العمـــــر
وشـــاهدت أعاجيبـــا ... وألوانا من الدهـــــر
فطـــابت بالنوى نفسى ... على الامســـاك والفطر
على أنى من القوم الـ ... بهـــاليل بنى الغـــر
فنحن الناس كل النـــاس ... فى البر وفى البحـــر
أخـــذنا جـــزية الخلق ... من الصـــين الى مصر
الى طنجـــة بل فى كل ... أرض خيلنـــا تسرى
اذا ضـــاق بنا قطر ... نزلنـــا عنه فى قطر
لنـــا الدنيا بما فيهـا ... من الاســـلام والـــكفر
فنصـــطاف على الثلج ... ونشـــتو فى ربى التمر

وغيرهم وغيرهم كثيرون ممن سار على دربهم ابن بطوطة ٠

الدنيا القديمة لبيان رحلة ابن بطوطه

بلاد القفجاق

بلاد القان

خانبالغ

الزيتون

القسطنطينية

غرناطة

بغداد

الكوفة

القطيف

مكة

ظفار

الصحراء

مقدشوه

كلوا

بحر الهند

ابن بطوطه

هو « أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى » نسبة الى لواته التى ولد فيها سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٤م) من أبوين كريمين ومن أسرة عالية أتيح لكثير من أبنائها الوصول الى منصب القضاء والنبوغ فى العلوم الشرعية ، فهو سليل محتد أصيل وعنصر كريم ٠

نشأ وشب فى مدينة طنجة ، وتربى فى معهدها الدينى وسار على نهج أسرته حيث درس العلوم الدينية وتفقه فيها ، كما تعلم الأدب وفنون الشعر وتحلى بصفات هيأت له السمو والرفعة وقد صقلته هذه التربية وجعلت منه رجلا تقيا ورعا محبا للعلماء والأولياء ، وخير مثال لما تمتع به أبناء الأسر الدينية العليا فى المجتمع الاسلامى من طموح وقدرة على تحمل المشاق والارتحال فى طلب العلم والعرفان ٠

تفتحت مواهبه حين شب عن طوق الفتيان وغدا شابا رشيدا فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان قد وقف على أخبـار أولئك الرحالة السابقين ، فأثارت عنده ملكة الميل الى مشاهدة أقاصى البلاد ، وبدأ يفكر فى مغادرة بلاده والذهاب الى بيت الله الحرام ليؤدى فريضة الحج وليزور قبر الرسول الكريم ٠

وكان هذا التفكير هو نقطة البدء فى حياة الرحالة ابن بطوطة اذ كان حدثا هاما رائدا آخذا هذا الرحالة المغامر الى آفاق بعيدة ودنيا جديدة نافضا عنه ثياب الدعة والاستقرار المقيم ليرتدى ثوب الارتحال والتجوال مخلدا اسمه فى ميدان الرحلات ٠

يقول الاستاذ مصطفى الشهابى فى كتابه «الجغرافيون العرب» : « ان القارىء لرحلة ابن بطوطة يلاحظ انه لم يكن يطمح عند بدء رحلته الى غير أداء فريضة الحج ، ولذلك كان القسم الخاص بالمراحل الأولى من

رحلته قاصرا على ذكر العلماء والصالحين الذين قابلهم ، والزوايا التى أقام بها ، ووصف بعض المدن الكبرى وصفا عابرا » ٠

ولكن ملكة الارتحال الأصيلة فى نفس ابن بطوطة توضحها هذه الزيارات التى طاف فيها الرحالة دلتا مصر وصعيدها وبلاد الشام ٠

وربما كانت نظرة ابن بطوطة السريعة الى تلك المدن معزوة الى أنه لم يكن قد اكتسب بعد هذه الخبرة الهائلة التى خلدت اسمه فى ميدان الرحلات كأحسن متحدث عن الأحوال الاجتماعية فى البلاد التى تجول فيها حديثا يشع الحياة ، لأن مماليه كان يحب الحياة متطلعا راغبا فى متعة المعرفة عن طريق الرؤية والتجربة ، فلقد سجل وقارن ووصف طبائع الناس وطرق معيشتهم وموارد أرزاقهم وصلاتهم بمن جاورهم ، كما عنى بأحوال الملوك والامراء والحكام واحتفالاتهم ومعاملاتهم حتى انه قارن بين أثمان النقود المتداولة فى الممالك وسجل المسافات بالأميال والفراسخ والأيام ٠

بدأت رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥هـ ٠ (١٣٢٤م) من بلاده بالمغرب وانتهت سنة ٧٥٤ هـ ٠ (١٣٥٦ م) ٠

أى استغرقت الرحلة خمسا وعشرين سنة ، ولقد فرغ من املائها سنة ٧٥٧هـ ٠

هذا هو ابن بطوطة الرحالة ، وفى الكلمات التالية نلقى بعض الضوء على كتابه الفريد ٠

الكتاب

تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

أخيرا وبعد خمس وعشرين سنة فى رحيل وتجوال وسهر وسفر ألقى الرحالة ابن بطوطة عصا التسيار فى مدينة فاس « وصلت الى حضرة فاس فى عهد حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله » .

ويقول وزير سلطان فاس محمد بن محمد بن جزى الكلبى « صدر الأمر العالى أن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك فى تصنيف يكون على فوائده مشتملا ولنيل مقاصده مكتملا متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه معتمدا ايضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرف وليعظم الانتفاع بدرها عند تجريده من الصدف » .

وتولى ابن جزى كاتب السلطان رواية الرحلة وتلخيصها وترتيبها واضافة بعض الأشعار اليها وتحقيق بعض أجزائها مستعينا بكتب الرحلات المعروفة فى ذلك العصر ولا سيما رحلة ابن جبير ثم سماها « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » .

فرغ منها سنة ٧٥٧ هـ ٠ ١٣٥٦ م ، وختمها بعبارة أجزل فيها الثناء على ابن بطوطة « انتهى مالخصته من تقييد الشيخ أبى عبدالله محمد بن بطوطة أكرمه الله ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحالة العصر » ٠

اهتم الأوربيون بهذا الكتاب وبحثوا عن المخطوط الأصلى فلم يجدوا سوى مختصر اكتشفه السائح بوركارت Burchart ثم اكتشف المستشرق كيس جرتن Kusgerten نسخة خطية ثانية فترجم منها الى اللغة اللاتينية .

ولقد طبعت رحلة ابن بطوطة فى باريس مع ترجمة فرنسية فى أواخر القرن الماضى (١٨٧٤ – ١٨٧٩ م) على يد المستشرقين ديفريمرى Defery emery وسان جنتى Saintgenty ، كما نقلها الى الانجليزية أحد

القسس . ونشر المستشرق الأســـتاذ جب Gipp ملخصا لها بالانجليزية فى سلسلة Brodway's Travelers وذلك عام ١٩٢٩ م وقدم له بتصدير طيب تحدث فيه عن الرحالة وعصره .

ولقـد ترجمت الرحلة أيضـــا الى اللغات الألمـانية والبرتغـالية والتركية .

ولقد طبعت فى القاهرة طبعتين الأولى عام ١٣٢٢ هـ بالمطبعـة الخيرية لمالكها ومديرها السيد عمر حسين الخشاب ، والثانية عـام ١٩٣٤ م تحت عنوان « مهذب رحلة ابن بطوطة » وقد أصدرتها وزارة المعارف العمومية . والكتاب مرجع هام رجع اليه كثير من المستشرقين والمؤلفين ، فكتاب « بلدان الخلافة الشرقية » من وضع المستشرق لسترنج ، وكتاب « تاريخ الترك فى آسيا الوسطى » من تأليف بلوتولد يعتمدان ـ شأنهما شأن الكثير من أمثالهما ـ على كتاب ابن بطوطة، وهكذا وفق ابن بطوطة كل التوفيق فيما أملاه عن رحلته ، فخلف لنا صـورا صادقة كلها حياة للعصر الذى عاش فيه ، وذلك عبر مسافة قدرها بعض العلماء بخمسة وسبعين ألف ميل .

الرحلات

بعد أن عرفنا الرجل وعرفنا شيئا عن الكتاب وجب علينا أن نتتبع خط سير هذا الرحالة لنضع الخطوط العريضة لرحلاته ، ولنقسمها الى ثلاث مراحل أو سفرات واسعة النطاق تسهيلا لعملية التتبع حتى يمكننا أن نقدم ملخصا موضحا لطريقة ابن بطوطة فى التصوير المجتمعى ، وعلى هذا نرى أن : ـ

١ ـ الرحلة الأولى تقع فى الفترة الزمنية من سنة ٧٢٥ هـ ١٣٢٤ م الى ٧٣٨ هـ ٠ ١٣٤٩ م ٠ زار فيها شمال افريقيا ومصر والشرق الأوسط وأفريقيا الشرقية وجزيرة العرب واليمن ، ثم قصد الى القسطنطينية ، وبعد أن أقام بها فترة من الزمن عاد الى الهند ، ثم سافر مع أعضاء البعثة الدبلوماسية التى أرسلها سلطان الهند محمد شاه .

٢ ـ والرحلة الثانية تقع فى سنة ٧٣٩ ـ ٧٤٠ هـ ـ ١٣٥٠ ـ ١٣٥١ م ٠ زار فيها الأندلس وجبل طارق وغرناطة .

٣ ـ والرحلة الثالثة تقع بين عامى ٧٤١ ـ ٧٤٣ هـ ـ ١٣٥٢ ـ ١٣٥٤ م ٠ زار فيها السودان وغرب افريقيا ٠

وتستمد هذه الرحلات قيمتها من تميز صاحبها عن سواه من الرحالة السابقين فى التفوق فى الدرس ، اذ لم يترك صغيرة ولا كبيرة الا ألم بها وبسطها بتفصيل ، حتى انه هو الذى انفرد بالتحدث عن السلطانة « رضية » التى توجها مسلمو الهند ملكة عليهم .

كان متوفر النشاط حتى انه استطاع أن يشهد بلادا كثيرة كانت تعيش فى العصر الذى بلغت فيه الحضارة العربية ذروتها واتسعت رقعة دولتها من حدود الهند فى الشرق الى المحيط الأطلسى فى الغرب، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز فى الشمال الى صحارى افريقيا فى الجنوب .

كما أن ابن بطوطة كان سابع سبعة من أعلام الرحالة العرب ، وهم القدسى والادريسى وابن جبير والسمعانى وياقوت والبيرونى ، الا أنه كان أشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية فى المجتمع الذى يراه .

ويمثل الكتاب الذى أملاه العالم ابن بطوطة وجها هاما لهذه الفترة من التاريخ عبر هذا الصعيد المترامى الأطراف من البلدان .

(أ) عبر المدن

يوم البدء كان هو الخميس الثانى من رجب عام ٧٢٥هـ ١٣٢٤م . ونقطة البدء طنجة والهدف القوى الظاهر حج بيت الله الحرام وزيارة قبر رسول الله (ص) ويسلمه الطريق فى تلمسان رفيق سفر وجهته تونس ، ويسيران رغم مرض ابن بطوطة بالحمى التى عانى منها حتى وصل الركب مدينة تونس ، ومن تونس يسير الركب مخترقا بلاد المغرب نازلا بتلمسان وبجاية وطرابلس .

وينحدر الى مصر فيذهب الى الاسكندرية ومنها الى منية بنى المرشد ثم الى دمياط فالقاهرة وشرقا الى الصالحية والى بلاد الشام بادئا ببيت المقدس فاللاذقية فدمشق فبصرى فتبوك فالعلا .

ويتجه جنوبا الى الحجاز فالى المدينة المنورة ومنها الى مكة ، وبعد أداء الفريضة يصعد مرة ثانية الى الشمال فيزور العراق بادئا بالنجف ثم واسط فالبصرة . وفى بلاد ايران يزور ابن بطوطة ايزج وتستر وأخيرا شيراز .

ويعود للعراق ليزور الكوفة وبغداد وكربلاء والموصل وعيد الرصد والمولحة وجزيرة ابن عمرو ونصيبين وسنجار .

ويبحر جنوبا الى جنوب شبه الجزيرة العربية مارا بماردين وسواكن ومالى .

ويصل الى ميناء تعز باليمن ومنها الى عدن فزيلع التى يبحر منها الى الصومال ليزور مقديشيو وكلوا ويعود الى قلهات معرجا على طيب زائرا نزوا وكل هذه فى عمان .

ويبحر ابن بطوطة الى جزيرة هيرمز ثم الى كورستان ولار ، ثم

سيزاف على ساحل بحر الهند ، وقبل أن ينوى الحج مرة ثانية يمر ببلاد البحرين القطيف والحسا واليمامة ٠

والى مكة من جـديد والى مينـاء جدة ليبـحر الى عيذاب وحمثرا والعطوانى ٠

ويعبر البحر الاحمر ليصل الى صعيد مصر وينزل باسنا ويسافر منها الى أرمنت ثم الاقصر ومنها الى قوص وقنا وأخميم وأسيوط ومنفلوط وملوى والاشمونين فالمنيا (منية بن خصيب) فالبهنسة ثم بوش فمنية القائد فمصر ومنها الى بلبيس ٠

ومن شرق مصر يتجه الى غزة ثم يزور مدينة الخليل وبيت المقدس فالرملة فعكا وطرابلس وجبلة ثم الى ميناء اللاذقية ٠

ومن هناك تداعب أحلام ابن بطوطة زيارة شواطىء آسيا الصغرى ومدنها وكانت تحكمها آنذاك دولة فتية قوية ، ويبدأ بالعلايا ثم أنطاكية ثم الى بردور وسبزا وأكردور وقلحسار ولاذق فميلات ومنها الى اللاندرة وبركا ومغنيسـيا وبرغمـة ثـم الى بلاكسرى وبرصى ومكـجا وكردبولى وقصطمنية وصنوب والقرم وأذاق والماجر وبلغـار والقسطنطينية ومن العاصمة الى السرا ٠ ويشد الرحال الى خوارزم والكات وبخارى وهرات والجام وطوس ومشهد الرضا وزامرة ونيسابور وبسطام وغزنة ٠

أما الهند فلقد عاش فيها ابن بطوطة أياما حافلة وزار فيها لاهنرى، ملتان ، دهلى ، أمروها ، بيانه ، هنرى ، أبى سرور ، منجرور ، هيلى ، جرفتن ، وقلقوت ٠ ومن هناك يبحر ابن بطوطة الى جزائر ذيبة المهل التى أذهلته فيها النساء الجميلات العاريات الا من مئزر يلففن به جزءا تحت خصورهن النحيلة ، الامر الذى دعا الدكتور حسين فوزى الى أن يصيح فى الرحالة وهو يصف « ويحك يابن بطوطة » ٠

وأبحر الى سيلان ومنها تقدم الى كنـكار ثم جاوه فالخنسا ثم الى قنقجوا فالزيتون ومنها الى كولم عائداً الى قلقوط ، ولا يلبث أن يذهب الى ظافار ويسافر منها الى مسقط والى هيرمز فكورستان ومنها الى ايلار ثم جنح بل وقارزى ثم الى جمكان وميمن وبسا وشيراز واصفهان من بلاد فارس ، وفى العراق يزور الكوفة وبغداد ويتجه جنوبا الى القدس وغزة ٠

ويحضر الى مصر من جديد فينزل فى مينـاء دمياط ويغـادرها الى

فارسكور وسمنود وأبى صير والمحلة الكبرى ثم الى دمنهور فالاسكندرية فالقاهرة ، ومن العاصمة يتجه جنوبا ، ومن صعيد مصر يركب الى عيذاب ويبحر منها الى جدة ثم الى مكة ويزور قبر رسول الله فى المدينة ، ومن أراضى الحجاز يعود الى صفاقس فى تونس ، ولا يلبث هذا الرحالة الحيوى أن يستأنف رحلته خاصة وان والديه كانا قد توفيا ، فيذهب من جديد الى مالى والسودان الذى لا يلبث به كثيرا حتى يعاوده الحنين الى صديقه سلطان فاس فيعود الى هنـــاك متخذا من فاس وطنا ومســـتقرا يحكى لسلطانها ليسجل وزيرها عملا من أكبر الاعمال ورحلة طويلة نادرة ٠

وهكذا نرى ان ابن بطوطة زار ما يقرب من مائتى مدينة كبيرة عدا القرى الصغيرة التى مر بالمئات منها ٠ وعذرا ان كنا قد أوردنا هذا السرد الجاف لهذا العدد الكبير من المدن التى زارها جميعا الرحالة الكبير ، الا انى أعتبرها المسرح الحقيقى للنشاط الانسانى الذى صوره ابن بطوطة ورآه وأحسه ، كمـا انها الارض الصلبة العمدان ذات المعـالم العمرانية والجغرافية التى وقـف عنـدها الرحالة الكبير متأملا مدققا النظر راويا لحكايات تدور عندها أو تتبع منها ٠

المدن الهامة وملامحها المميزة

ومرة أخرى نعود للمدن متأملين ما أضفاه ابن بطوطة على كل منها من نعوت وصفات ، ناظرين الى أهم ملامحها العمرانية ٠

فلقد وصف « بوسة » بأنها « صغيرة حسنة مبنية على شاطىء بحر» وبهذه الصفات التى يمكن فعلا أن تكون واقعية جدا يعطينا ابن بطوطة صورة لشابة حسناء تقف حالمة على شاطىء ٠

أما احســـاس ابن بطوطة بالاسـكندرية فيبين فى هـذه الكلمات « حرســها الله وهى الثـغر المحروس والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن الاصيلة البنيان ، بها ما شـئت من تحسين وتحصين ومآثر وميـادين ، كرمت مغانيها ولطفت معـانيها ، وجمعت بين الضـــخامة والاحكام اما مبانيها ، فهى الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تتجلى فى حلاها الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طرفة اليها انتهاؤها » ٠ وهكذا نرى انه يدعو لها بأن يرعاها الله ويقرر أنها ثغر محروس وقطر آهل بسكانه ، ورأى انهـــا مختلفة وأصيلة ، وكان ابن بطوطة يعـــود عبر الزمن الى

٣٣١ ق • م ليرى دينوكراتيس وهو ذاهب لتخطيط الاسكندرية الجديدة فوق صدر راكودة ، ويلمح ابن بطوطة كمهى جميلة حسنة وحصينة ورأى مبانيها ضخمة محكمة ثم يتحدث عن أبواب الاسكندرية فيقول : « ان لها أربعة أبواب هى باب السدرة واليه يشرع طريق المغرب والجميل ان هذا الاسم لا يزال يحيا وان اختزل الزمن « ال » التعريفية فأصبح يعرف بباب سدرة ، وباب رشيد وباب البحر والباب الاخضر الذى لم يكن يفتح الا كل يوم جمعة ليخرج الناس منه لزيارة القبور » أما عن الميناء فقد قال « ولها المرسى العظيم الشأن ولم أر فى الدنيـا مثله الا ما كان فى كولم وقاليقوط ببلاد الهند ، والكفار لهم مرسى بسوادق ببلاد الاتراك ومرسى الزيتون ببلاد الصين » •

وحينما قصـد ابن بطوطة لزيارة المنـار كان أحد جوانبه متهدما ووصفه « بانه بناء مربع ذاهب فى الهواء وبابه مرتفـع على الارض وازاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألـواح خشب يعبر عليها الى بابه فاذا أزيلت لم يكن له سبيل ، وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار، وداخل المنـار بيـوت كثيرة ، وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة أشبار وعرض المنـار من كل جهة من جهـاته الاربع مائة وأربعون شبرا ، وهو على تل مرتفع والمسـافة بينه وبين المدينة فرسخ واحد فى بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات الى أن يتصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصل الى المنار فى البر الا من المدينة ، وفى رحلة العـودة الى الموطن وجد ابن بطوطة ان هذا المنار قد خرب ووجد الملك الناصر قد شرع فى بناء مثله بازائه وعاقه الموت عن اتمامه » •

ولقد وصف ابن بطوطة عمود السوارى بانه من غرائب هذه المدينة قال انه خارجها وانه عمود رخام هائل متوسط فى غابة نخل وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا وهو قطعة واحدة محـكمة النـحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعة •

ومن الاسكندرية يسير ركب ابن بطوطة الى دمنهور فيقول « انها مدينة كبيرة جبايتها كثيرة ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة بأسرها وقطبها الذى عليه مدار أمرها » ويعنى بالجباية الكثيرة المتحصلات الواردة الى بيت المال من مكوس وضرائب ، ولا زالت دمنهـور حتى اليـوم عاصمة البحيرة •

أما فوة فقد أعجبه منها منظرها وقال : « انها حسنة المخبر ، بها

البساتين الكثيرة والفوائد الخطـيرة الاثيرة » وحينما وصل الى النحارية رآها رحيبة الفناء حديثة البناء أسواقها حسنة الرؤية ٠

أما أبيار فكانت « قديمة البناء ، أرجة الارجاء » ، ووصف المحلة بقوله « جليلة المقدار حسنة الآثار كثير أهلها جامع بالمحاسن شملها » ، وماذا لو رأى ابن بطوطة المحلة اليـــوم كأعم مركز صناعى فى الشرق الاوسط كله وآلاف العمال يفدون ويعملون وينتجون ٠

ومن المحلة سافر ابن بطوطة الى دميـاط التى رآها مدينة فسيحة الاقطار متنوعة الثمار عجيبة الترتيب آخذة من كل حسن بنصيب سورها حلوى وكلابها غنم ، وماذا يمكن أن يقال مما يوضح رفاهية مجتمع هذه المدينة ذات السور الحلوى ٠

وقال عن بلدة أشمون الرمان « انهـا مدينة عتيقة كبيرة » ووصف سمنود بأنها كثيرة المراكب ــ والى القاهرة المعزية ركب ابن بطوطة فى النيل مصعدا الى مصر (القاهرة) ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض ، ولذا لا يفتقر راكب النيـــل الى استصحاب الزاد ، فالاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر ومن مصر الى أسوان ٠ «ومصر هى أم البلاد وقرار فرعون ذى الاوتاد ، ذات الاقاليم العريضة والبلاد الاريضة المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ومحط حل الضعيف والقادر وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ووضيع ونبيه ، وشريف وشروف ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها ، شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرتها الامم ، وتمكنت ملوكها نواصى العرب والعجم ، ولها خصوصية النيل التى جل خطرها وأغنـاها عن أن يسـتمد القطر قطرها ، وأرضها مسيرة شـهر لمجـد السير كريمة التربة مؤنسة لذوى الغربة » ٠

ولقد تحـدث ابن بطوطة عن مســجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستان والزوايا فذكر ان « مسـجد عمرو بن العـاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر ، تقام فيه الجمعة ، والطريق يعترضه من شرق الى غرب ، وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعى، وذكر ان المدارس بمصر لا يمـكن أن تحصى لكثرتها » كما تحـدث عن

المارستان الذى بين القصرين وقال ان محاسنه تعجز الواصف • وقال عن قرافة مصر ومزاراتها « لمصر القرافة العظيمة الشأن فى التبرك بهـا وقد جاء فى فضلها أثر أخرجه القرطبى وغيره بأنها من جملة الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنـة ، وهم يبنـون بالقرافة القباب الحسنة » •

ويعود للنيل ليقول : « انه يفضل أنهار الارض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة ، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس فى المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يذدرع عليه ما يذدرع على النيل وليس فى الارض نهر يسمى بحرا غيره ، ويذكر قول الله تعالى مستشهدا « فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم » ولذا سمى النيل باسم البـحر ، ويذكر ابن بطوطة انه ورد فى الحديث الصحيح أن رسول الله (ص) وصل ليلة الاسراء الى سدرة المنتهى فاذا فى أصلها أربعة أنهار ، نهران ظاهران ونهران باطنان ، فسأل عنها جبريل عليه السلام فقـال اما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ، وفى الحديث أيضا أن النيل والفرات وسيحون وجيحون ، كل من أنهار الجنة ، كما لاحظ ابن بطوطة أن مجرى النيل من الجنوب الى الشمال مخالف لجميع الانهار ، وقال ان من عجائبه أن ابتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الانهـار وجفـافها وابتداء نقصه عند زيادة الانهار ونيفها ، ونهر السند مثله فى ذلك ، وذكر ان أول زيادته فى حزيران « يونيه » ، فاذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعا تم خراج السلطان ، فان زاد ذراعا كان الخصب فى العام والصلاح التام ، فان بلغ ثمانية عشر ذراعا أضر بالضياع وأعقب الدمار ، وان نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطـان ، وان نقص ذراعين استسقى النـاس ، وكان الضرر الشديد ، والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار وهى النيـل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون •

وبعد النهر المعجزة يتحدث ابن بطوطة عن الاهرام والبرارى فيقول عنها : انها من العجائب المذكورة على مر الدهور وللناس فيها كلام كثير وخوض فى شأنها وأولية بنائها ويصفها بأنها بناء بالحجر الصلب المنحوت متناهى السمو مستدير متسع الاسفل ضيق الأعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها ، وحكى عنها حكاية تقول ان ملكا من ملوك مصر قبل طوفان نوح رأى رؤية هالته ، أوجبت عنده انه بنى تلك الاهرام بالجانب الغربى من النيـل لتكون مستودعا للعلوم ولجثة الملوك وانه سأل المنجمين هل يفتح منها موضعا فأخبروه أنها تفتح من الجانب

الشمالى وعينوا له الموضع الذى تفتح منه ومبلغ الانفاق فى فتحه واشتد فى البناء فأتمه فى ستين سنة وكتب عليها « بنينا هذه الاهرام فى ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك فان الهـدم أيسر من البناء » فلمـا أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فأشار عليه بعض مشايخ مصر ألا يفعل فلج فى ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ثم يرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التى بها الى اليوم ووجدوا بازاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه وأحصى ما أنفق فى النقب فوجدهما سـواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا ٠

ومن الغريب أن يهتم ابن بطوطة بوصف الأهرام وايراد الحكايات المتواترة عنها ولا يذكر أبا الهـول بكلمـة وربما كان أبو الهول مطمورا آنذاك فى رمال الصحراء ٠

وفى طريقه الى بلاد الشام مر ابن بطوطة بمدينة بلبيس وقال انها مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة ، وقال عن غزة « انها متسعة الأقطار كثيرة العمارة حسنة الأسواق بها المساجد العديدة والأسوار » ٠ وحينما تحدث عن مدينـة الخليل ذكر أنها صغيرة المسـاحة كبيرة المقدار مشرقة الأنوار حسنة المنظر عجيبة المخبر فى بطن واد ، ومسجدها أنيق الصنع محكم العمل بديع الحسن سامى الارتفاع مبنى بالصخر المنحوت ٠

وأورد ابن بطوطة حديثـه عن مغـاص الجـوهر الواقع بين ثيراف والبحرين فى خور راكد مثل الوادى العظيم ويقول انه اذا أتى شهر ابريل وشهر مايو تأتى اليه القـوارب الكثيرة فيها الغواصـون وتجـار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئا يكسوه من عظم الغيلم « السلحفاة » ويصف طريق الصيد للجواهر ٠

وينتقل الحديث الى القسـطنطينية فيقـول انها متناهيـة فى الكبر يقسمها نهر عظيم الى قسمين ، والنهر عظيم المد والجـزر وكانت عليـه قديما قنطرة مبنية ونهر يسمى الآن يعبر فى القـوارب ، وأول أقسـام المدينة اسمه اسطنبول وهو بالعـدوة الشرقيـة من النهر وفيه سـكنى السلطان وأرباب دولته وسائر النـاس وأسـواقه وشـوارعه مفروشـة بالصفاح متسعة ، وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم ، وفى كل سوق أبواب تسد عليهم بالليل وأكثر الصـناع والباعة بها النسـاء

والمدينة فى سفح جبل داخل البحر والكنيسة العظمى فى هذا القسم ، أما القسم الثانى منها فيسمى الغلطة وهو بالعدوة الغربية من النهر ٠

وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج ومعظمهم مصنف لدى ابن بطوطة الى جنـوبيين وبنـادقة وروميين وأهـل افرانسـه وحكمهـم الى ملك القسطنطينية ، ولم ير ابن بطوطة كنيسة القسطنطينية العظمى من الداخل وان شاهدها من الخارج وقال انهم يسمونها أيا صوفيا وذكر أنها من بناء أصف بن برديا وقال انه ابن خالة سليمان عليه السلام وهى من أعظم كنائس الروم واليها سور يطيف بها فكأنها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا ولها حرم نحو ميل عليه باب كبير ولا يمنع أحد من دخـوله وقد دخله ابن بطوطة مع والد الملك فرآه شبه مستور مسطحا بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مرتفعان نحو ذراع مصـنوعان بالرخـام المجزع المنقوش بأحسن صنعة والأشجار منتظمة عن جهتى الساقية ، ومن باب الكنيسة الى باب هذا السور معرش من الخشب مرتفع عليـه دوالى العنب وفى أسفله الياسمين والرياحين وخارج باب هذا السور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب يجلس عليها خدام هذا الباب ، وعن يمين القبة مصاطب وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم وفى وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد عليها على درجة خشب وفيها كرسى كبير يجلس فوقه قاضيهم ، وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقيمون طرقها ويوقدون سرجها ويغلقون أبوابها ولا يدعون أحدا يدخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم الذى يزعمون أنه بقية من الخشب الذى صلب عليه شبيه عيسى عليـه السـلام ، وهو على باب الكنيسة مجعول فى جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع وقد عرضوا عليه جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليبا ، وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب حلقتاه من الذهب الخالص ، وذكر انه قيل له ان عدد الرهبـان والقسيسين بهذه الكنيسة ينتهى الى آلاف وان فيها كنيسـة مخصصـة للنساء ٠

وقال عن مانسـتارات القسطنطينية تلك التى تشـبه الزوايا عند المسلمين وهى كثيرة يحتفلون ببنائها ويعملونها بالرخام والفسيفساء ٠ وحينما انتقل ابن بطوطة الى الهند وجد أن مدينـة دلهى كبيرة المسـاحة كثيرة العمارة ورآها آنذاك أربع مدن متجاورات متصلات احداها المسماة بهذا الاسم دلهى وهى القديمة من بناء الكفار وكان افتتاحها سنة ٥٨٤ هـ والثانية تسمى سيرى وتسمى أيضـا دار الخـلافة والثالثة تغلق باسـم

السلطان والرابعة تسمى جهان وهى مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند ٠

قال ابن بطوطة ان السور المحيط بدلهى لا يوجد له نظير ، عرض حائطه أحد عشر ذراعا وفيه بيوت يسكنها السمار حفاظ الأبواب وفيها مخازن للطعام ومخازن للعتاد والمجانيق والرعادات ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير ولا تطرقه آفة وفيها طاقات مفتحة الى جهة المدينة يدخل منها الضوء وأسفل هذا السور مبنى بالحجارة وأعلاه بالآجر وأبراجه كثيرة متقاربة ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابا وهم يسمون الباب دروازه ٠

وجامع دلهى كبير المساحة حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيضاء المنحوتة أبدع نحت ملصقة بالرصاص أتقن الصاق ولاخشبة به أصلا وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة ومنبره أيضا من الحجر وله أربعة من الصحون وفى وسط الجامع العمود الهائل الذى لا يدرى من أى المعادن هو وقد جلى من هذا العمود مقدار السبابة ولذلك المجلو منه بريق عظيم ولا يؤثر فيه الحديد وطوله ثلاثون ذراعا ٠

وبخارج دلهى الحوض الأعظم المنسوب الى السلطان شمس الدين للمش ومنه يشرب أهل المدينة وهو بالقرب من مصلاها وماؤه يجتمع من ماء المطر وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله والجهة الغربية مبنية من الحجارة مصنوعة أمثال الدكاكين وبجانب كل دكان قبة حجارة فيها مجالس للمتنزهين والمتفردين وفى وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة مجعولة طبقتين وفيما بين دلهى ودار الخلافة حوض خاص وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين وعلى جانبه نحو أربعين قبة ويسكن حوله أهل الطرب وموضعهم يسمى طرب أباد ٠

ومن مزارات دلهى قبر الشيخ الصالح قطب الدين الاختيار الكعكى الظاهر البركة الكثير التعظيم ، وقبر الفقيه علاء الدين الكرمانى نسبة الى كرمان وهو ظاهر البركة ساطع النور ٠

ولقد زار ابن بطوطة ببلاد الهند مدينة جرفتن وقال انها مدينة كبيرة على خور كثيرة البساتين وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول وبها القلقاس الكثير ٠ وبازاء جامع جرفتن شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين الا أنها لينة وعليها حائط يطيف بها وعندها محراب واسمها درخت الشهادة وحكى انه تسقط زمان الخريف ورقة واحدة من

هذه الشجرة بعد أن يستحيل لونها الى الصفرة ثم الى الحمرة ويكون مكتوبا فيها بقلم القدرة لا اله الا الله محمد رسول الله ٠

وعندما ذهب الى الصين صنف مراكبها وسماها فقال آن الكبيرة اسمها جنك والمتوسطة اسمها الزو والصغيرة تدعى ككم والكبيرة تحمل اثنى عشر قلعا فما دونها الى ثلاثة وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبدا ويديرونها بحسب دوران الريح ويخدم فى المركب منها ألف رجل ووكيل المركب كأنه أمير كبير ٠

كما لفت نظر ابن بطوطة أشجار سندابور وهى أشجار النارجيل عجيبة الشأن تثمر النخلة منها اثنى عشر عزقا فى السنة وقال انه يصنع منها الحليب والزيت والعسل، وفى بلاد الصين أيضا شد عينى ابن بطوطة قصر السلطان المختص بسكناه فقال ان أكثر عمارته بالخشب المنقوش وله ترتيب عجيب وعليه سبعة أبواب وحدد وظائفها والمسئولين عنها وقال ان به سقائف كثيرة كالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة بين يديه دواة عظيمة من الذهب ٠

ولفت نظره بالقدس المسجد الأقصى الذى يقول عنه انه من المساجد العجيبة الرائعة الفائقة الحسن يقال انه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه وانه من شرق الى غرب سبعمائة واثنان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية وعرضه من القبة الى الجوف أربعمائة ذراع وخمسة وثلاثون ذراعا وله أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها الا بابا واحدا وهو الذى يدخل منه الامام الى المسجد ، والمسجد كله فضاء غير مسقوف الا المسجد الأقصى فهو مسقوف وهو فى النهاية فائق من احكام العمل واتقان الصنعة بالذهب والأصبغة الرائعة وفى المسجد موضع سواه مسقوف ٠

وكان من الطبيعى أن تلفت قبة الصخرة الشهيرة نظر الرحالة الكبير فيقول انها من أعجب المبانى وأتقنها وأغربها شكلا قد توافر حظها من المحاسن يصعد اليها فى درج رخام ولها أربعة أبواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضا محكم الصنعة وكذلك داخلها وفى ظاهرها وباطنها من أنواع الذواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف وأكثر ذلك موشى بالذهب فهى تتلألأ نورا وتلمع لمعان البرق يحار بصر متأملها فى محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها وفى وسط القبة الصخرة الكريمة التى جاء ذكرها فى

الآثار فان النبى صلى الله عليه وسلم عرج منها الى السماء وهى صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة وتحتها مغارة فى مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضا ينزل عليها على درج وهنالك شبه محراب وعلى وجه الصحة شباكان اثنان محكما العمل يغلقان عليها، أحدهما وهو الذى يلى الصخرة من حديد بديع الصنعة والثانى من خشب وفى القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك والناس يزعمون انها درقة حمزة بن عبد المطلب ٠

ومثلما اهتمت عينا ابن بطوطة الذكيتان بالمشاهد المباركة لمحت مشاهد القدس الشريف فتحدث عن البنية الواقعة بعدوة المعروفة بوادى جهنم فى شرقى البلد على تل مرتفع هناك والتى يقال انها مصعد عيسى عليه السلام الى السماء ٠

كما ذكر أيضا قبر رابعة العدوية وهى غير رابعة العدوية شهيدة العشق الالهى الشهيرة ، كما ذكر الكنيسة التى يعظمها النصارى ويقولون عنها انها قبر مريم عليها السلام والكنيسة الثانية التى يحج اليها النصارى ويكذبون عليها ويقولون انها قبر عيسى عليه السلام وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الاهانة يتحملها على رغم أنفه ، وهنالك أيضا موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به ٠

ولقد زار ابن بطوطة مدينة أنطاكية ورآها كثيرة العمارة والدور حسنة البناء كثيرة الأشجار والمياه وبعد ذلك تجول ابن بطوطة فى ربوع لبنان وتنسم هواء الجبل وبعد ذلك ذهب الى دمشق التى قال عنها : انها تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها ولا أبدع مماقاله ابن جبير رحمه الله فى ذكرها حين قال انها جنة المشرق ومطلع نورها المشرق وخاتمة بلاد الاسلام التى استقريناها وعروس المدن التى اجتليناها قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت فى حلل سندسية من البساتين وحلت عن موضع الحسن من مكان المكين وتزينت فى صفتها أجمل تزيين وتشرفت بأن آوى المسيح عليه السلام وأمه الى ربوة منها ذات قرار ومعين ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب انسياب الأراقم بكل سبيل ورياض يحيى نفوسنا نسيمها العليل تتبرج لناظريها بمجتلى وتناديهم هلموا الى معرش للحسن ومقيل ، وقد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظمأ وهكذا تستمر قصيدة المديح الطويلة حتى تنساب أبيات الشعر فى حسنها وبهائها ٠

ومثلما أحس ابن بطوطة دمشق عاش معالمها الكبيرة فقال عن مسجدها انه أعظم مساجد الدنيا احتفالا وأتقنها صناعة وأبدعها حسنا

وبهجة وكمالا ، ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه ، ويحكى عن تاريخ بنائه وعن زينته بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن وعد عمدانه وشمسات الزجاج الملونة والأرجل المرصعة بالرخام الملون التى صور فيها أشكال محاريب وكأن البناة شبهوا المسجد نسرا طائرا والقبة رأسه ، وهى من أعجب مبانى الدنيا ومن أية جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة فى الهواء منيفة على كل مبانى البلد ٠

وقال ابن بطوطة انه كان للشاذلية بدمشق جملة من المدارس أعظمها العادلية وبها يحكم قاضى القضاة وتقابلها المدرسة الظاهرية وبها قبر الملك الظاهر وبها جلوس نواب القاضى ٠

أما أبواب دمشق فكانت ثمانية منها باب الفراديس وباب الجابية ومنها الباب الصغير وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء ٠

ومن مشاهدها ومزاراتها المقبرة الواقعة بين الجابية والباب الصغير قبر أم حبيبة بنت أبى سفيان وقبر أخيها معاوية وقبر بلال مؤذن رسول الله ٠

وعند باب شرقى الجبانة التى فيها قبر أبى بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها قبر العابد الصالح رسلان المعروف بالباز الأشهب ٠

ويقول ابن بطوطة عن أرباض دمشق الفسيحة انها تدور بجهاتها الشمالية والغربية والجنوبية وداخلها أملح من داخل دمشق وبالجهة الشمالية ربض الصالحية وهى مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول وتجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المأكل والملابس ٠

وبداخل البلد مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا وأهل الصالحية على مذهب الامام ابن حنبل ٠

وجبل قسيون الذى تنام الصالحية فوق سطحه شهير البركة لأنه مصعد الأنبياء عليهم السلام ومن مشاهده الكريمة الغار الذى ولد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام وهو غار مستطيل ضيق عليه مسجد كبير وله صومعة عالية ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس حسبما ورد فى الكتاب العزيز ٠

ومن مشاهده أيضا مغارة الدم التى فوق جبلها دم هابيل وهناك كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وأسفله مغارة الجونة تلك التى يقال انه آوى اليها سبعون من الأنبياء عليهم السلام وكان عندهم رغيف فكان يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعا ٠

وفى آخر الجبل الربوة المباركة المذكورة فى كتاب الله ذات قرار ومعين ومأوى المسيح وأمه عليهما السلام وهى من أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاتها وبها القصور المشيدة والمبانى الشريفة والبساتين البديعة ، والمأوى المبارك مغارة صغيرة فى وسطها كالبيت الصغير وفى دمشق يذكر ابن بطوطة أخيرا الأوقاف الموقوفة على أغراض كثيرة ومنافع شتى ٠

ثم يتحدث ابن بطوطة عن البلد القدسى الشريف المدينة المنورة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسجد المعظم وروضته الشريفة فيقول : ان المسجد مستطيل تحفه من جهاته الاربع بلاطات دائرة به ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها، شكلها عجيب لا يتأتى تمثيله وهى مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الزمان ، وفى الصفحة القبلية منها مسمار من فضة وهو قبالة الوجه الكريم وهناك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم ، وهناك يستدبرون القبلة فيسلمون وينصرفون الى وجه أبى بكر الصديق ، ورأس أبى بكر عند قدمى رسول الله ، ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب ورأسه عند كتفى أبى بكر، وفى جوف الروضة حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب يقال انه كان فى بيت فاطمة بنت رسول الله ويقال انه قبرها ٠

ويحكى ابن بطوطة تاريخ بناء المسجد الكريم بالتفصيل ثم ينتقل الى تاريخ المنبر ووصفه والعاملين به والمجاورين ٠

ثم ينتقل الى خارج المدينة وفى شرقها يذهب الى بقيع الفرقد الذى يخرج اليها على باب البقيع والخارج اليه يلقى على يساره قبر صفية بنت عبد المطلب وعديد من قبور أهل الرسول رضوان الله عليهم ٠

ويسير الركب الى مكة ويصفها ابن بطوطة بأنها مدينة كبيرة مستطيلة فى بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ وأبوابها ثلاثة أبواب باب معلى بأعلاها وباب الشبيكة أو باب الزاهر أو باب العمرة بأسفلها

والثالث باب السفل الذى دخل منه خالد بن الوليد يوم الفتح ، ويحكى ابن بطوطة عن المسجد الحرام فيقول انه فى وسط البلد متسع المساحة طوله من شرق الى غرب أزيد من أربعمائة ذراع والكعبة العظمى فى وسطه ومنظره بديع ومرآه جميل لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ولا يحيط الواصف بحسن كماله ، وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف بأتقن صناعة وأجملها وقد انتظمت بلاطاته الثلاث انتظاما عجيبا كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربعمائة واحدى وتسعون سارية ٠

ثم ينتقل الى وصف الكعبة المعظمة الشريفة فيقول انها بنية مربعة ارتفاعها فى الهواء من الجهات الثلاث ثمانية وعشرون ذراعا ومن الجهة الرابعة التى بين الحجر الأسود والركن اليمانى تسعة وعشرون ذراعا وبناؤها بالحجارة الصم ٠

ويذكر الحجر الأسود فيرى أنه مرتفع عن الأرض ستة أشبار ، فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله والصغير يتطاول لتقبيله ملصق فى الركن الذى الى جهة المشرق والجوانب بالحجر مشدودة بصفيحة من الفضة يلوح بابها على سواد الحجر الكريم فتجتلى منه العيون سحرا باهرا ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ويود لاثمه ألا يفارق لثمه ، خاصية مودعة فيه وعناية ربانية ٠

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود وبينهما أربع وعشرون خطوة وأبواب المسجد الحرام تسعة عشر بابا وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة فمنها باب الصفا المفتح على خمسة أبواب وباب بنى شيبة وباب الخياطين وباب العباسى وباب بنى عبد شمس ، ويترك ابن بطوطة الكعبة الكريمة وفى خارج مكة يتأمل الحجون وهو الجبل المطل على الجبانة والثنية البيضاء التى خرج منها رسول الله وسلم تسليمة عام الوداع ومسجد التبرك الذى يقال ان الرسول استراح عنده والذىمنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة فى حجة الوداع وقد بنيت هناك ثلاثة مساجد على الطريق تنسب كلها اليها ومن الجبال بمكة جبل أبى قبيس وهو فى جهة الجنوب الذى يقال انه أول جبل خلقه الله تعالى والجبل الاحمر وجبل الطير وجبل ثور فى طريق اليمن وفيه الغار الذى آوى اليه رسول الله عند خروجه من مكة ٠

وبعد أن أدى ابن بطوطة فريضة الحج وزار قبر الرسول ذهب الى مدينة البصرة مارا بمدينة واسط التى قال عنها « انها حسنة الأقطار

كثيرة البساتين والأشجار بها أعلام هدى الخير شاهدهم وتهدى الاعتبار مشاهدهم » ٠

وبهرته البصرة فقال انها من اتساع الخطة وانفساح الساحة مايجعلها أمة العراق الشهيرة الذكر فى الآفاق الفسيحة الأرجاء المؤنقة الأفناء ذات البساتين الكثيرة والفواكه الأثيرة توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت مجمع البحرين الأجاج والعذب وليس فى الدنيا أكثر منها نخلا ٠

وفيها مشهد طلحة بن عبدالله أحد العشرة رضى الله عنهم ، وعليه قبة ومسجد وزاوية للطعام ، ومشهد الزبير بن العوام حوارى رسول الله وهناك قبر حليمة السعدية ، وبعد أن عدد ابن بطوطة مشاهد البصرة المباركة ألم بذكرمشهد أحمد بن موسى أخى على الرضى بن موسى بن جعفر ابن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وقال انه مشهد معظم عند أهل شيراز يتبركون به ويتوسلون الى الله بفضله ، كما ذكر أن طاشخاتون أم السلطان أبى اسحق بنت عليه مدرسة كبيرة وزاوية ٠ وقال ابن بطوطة ان شيراز من أكثر بلاد الله شرفا ، وفى طريقه الى الكوفة يمر بفيروزان ويقول انها مدينة صغيرة ذات أنهـار وأشجار وبساتين ٠

أما الكوفة فهى احدى أمهات البلاد العراقية الممتـدة المتميزة فيها بفضل المزية كمثوى للصحابة والتابعين ومنزل العلماء والصالحين وحضرة على بن أبى طالب أمير المؤمنين الا أن الخراب استولى عليها بسبب أيدى العدوان التى امتدت اليها ٠

ويصف بغداد بأنها مدينة دار السلام وحضرة الاسلام ذات القدر الشريف والفضل المنيف مثوى الخلفاء ومقر العلماء ثم ينعاها بأبيات حزينة وان رجع وذكر الجسرين المعقودين اللذين يعبرهما الناس ليلا ونهارا وعد مساجدها الاحدى عشرة وحماتها الكثيرة المشهورة بالاتقان وقال ان بغداد جانبان غربى وهو الذى بنى أولا وقد خرب أثناء مرور ابن بطوطة بها ، وشرقى حافل بالأسواق عظيم الترتيب ، وقال ان أعظم أسواقها سوق العجيبة المنعقد كل ثلاثاء وكل صناعة فيه على حدة وفى وسطه المدرسة النظامية التى يضرب بحسنها الأمثال وفي آخـره المدرسـة المستنصرية نسبة لأمير المؤمنين المستنصر بالله ووصف المدرسين وطريقة تلقى العلم بهذه المدرسة ٠

وبعد ذلك أورد ابن بطوطة كلمة عن قبور الخلفاء العباسيين المدون فوق كل قبر منها اسم صاحبه وظل يعدد الأسماء ، ووصف قبر الامام

احمد بن حنبل ، كما قال ان هذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه انما تجلب اليها من الجهة الغربية لأن فيها البساتين والحدائق ٠

وحينما زار الموصل قال عنها انها مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن شهيرة الامتناع ، عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينها وبين البلد شارع مستطيل وللموصل ربض كبير فيه المساجد والحمامات والأسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة ٠

(ب) الناس والعادات والتقاليد

هذه هى أهم المدن التى زارها الرحالة ابن بطوطة وتلك هى أبرز ملامحها العمرانية المرتبطة تمام الارتباط بعقيدة المجتمع الاسلامى التى صورها فى رحلته ، كما ارتبطت بحياته الاجتماعية وعاداته وتقاليده تتبعناها لنصل الى الصورة الطوبوغرافية التى يتحرك فيها هذا المجتمع الكبير من أقصى الغرب الى أقصى الشرق ٠

وبعد أن استعرضنا هذه المسارح التى يبدع الانسان فوقها نشاطاته المختلفة وجب علينا أن نلتقط ــ ولو للحظة ــ الناس فى أماكن شتى من هذا المجتمع لنتثبت من حقيقة عاشت وستعيش دوما طالما عاش الشعب الاسلامى العربى فوق هذه الأرض وفى هذه المدن ٠

رأى ابن بطوطة الناس وعايشهم وتعامل معهم وفهمهم وكتب عنهم فتراه مثلا يتحدث عن أهل مكة الذين لهم الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والايثار للضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء ويعدد العادات الحسنة فيقول انه متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها باطعام الفقراء والمنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم ٠

ويأتى الرجل من أهل مكة الى السوق فيشترى الحبوب واللحم والخضر ويعطى ذلك للصبى فيجعل الحبوب فى احدى قفتيه واللحم والخضر فى الأخرى ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ، ويذهب الرجل الى طوافه وحاجته فلايذكر أن أحدا من الصبيان خان الأمانة فى ذلك قط بل يؤدى ما حمل على أتم الوجوه ولهم على ذلك أجرة معلومة ٠

ويستطرد « وأهل مكة لهم ظرف ونظافة فى الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثيرا ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الآراك الأخضر ، ونساء مكة فائقات الحسن

بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب حتى ان احداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا ، وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة فيأتين فى أحسن زى وتغلب على الحرم رائحة طيبهن وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا » ٠

ومن عادات أهل مكة أن يصلى أول الأئمة امام الشافعية وهو المقدم من قبل أولى الأمر وصلاته خلف المقام الكبير مقام ابراهيم وجمهور الناس بمكة على مذهبه واذا صلى الامام الشافعى صلى بعده الامام المالكى فى محراب القبالة للركن اليمني ، ويصلى امام الحنبلية معه فى وقت واحد ثم يصلى أمام الحنفية ٠

٠٠٠ وترتيبهم هكذا فى الصلوات الأربع ، أما صلاة المغرب فانهم يصلونها فى وقت واحد كل امام يصلى بطائفته ، وربما دخل على الناس من ذلك سهو وركع المالكى بركوع الشافعى ٠

وفى يوم الجمعة يلصق المنبر المبارك على صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقى ، ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم فاذا خرج الخطيب أقبل لابسا ثوب سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان أسود ، وكل ذلك من كسوة الملك الناصر ، وعليه الوقار والسكينة وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين وبين يديه أحد القدمة وفى يده الفرقعة وهى عود فى طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه فى الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه الى أن يقترب من المنبر فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر الزمزمى وهو رئيس المؤذنين بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكا له بيده وتركز الرايتان على جانبى المنبر فاذا صعد أول درجة من درج المنبر قلده المؤذن السيف فيضرب نصل السيف ضربة فى الدرج يسمعها الحاضرون ثم يضرب فى الدرج الثانى ثم أخرى فى الثالث فاذا استولى فى آخر الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعيا بدعاء خفى مستقبلا الكعبة ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس ثم يقصر ويؤذن المؤذنون فى أعلى قبة زمزم فى حين واحد ، فاذا فرغ الأذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يدعو للأميرين واذا فرغ من خطبته صلى وانصرف والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه اشعارا بانقضاء الصلاة ٠

وحينما يبدو هلال الشهر الجديد يأتى أمير مكة فى أول أيام الشهر وقوادها يحفون به وهو لابس البياض معتم متقلد سيفا وعليه السكينة

والوقار فيصلى عند المقام ركعتين ثم يقبل الحجر ويشرع فى طواف أسبوع ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم ، فعندما يكمل الأمير شـوطا واحدا ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك صوته ثم يذكر شعرا فى مدحه ومدح سلفه الكريم ويفعل به هكذا فى سبعة أشواط فاذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين ثم انصرف ، واذا هل هلال رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعارا بدخول الشهر ثم يخرج راكبا ويحتفل أهـل مكة بعمـرة رجب احتفالات لا يعهد مثلها وهى متصلة ليلا ونهارا واوقات الشهر كله معمورة بالعبادة وخصوصا الأول والخامس عشر والسابع والعشرون ٠

وفى ليلة النصف من شعبان المعظم عند أهل مكة يبادرون فيهـا الى أعمال البر والى الطواف والصلاة جماعات وأفرادا والاعتمار ويجتمعون فى المسـجد الحرام جماعات لكل جمـاعة امام ويوقدون السرج والمصـابيح والمشاعل ويقابل ذلك ضوء القمـر المتلألىء يملأ الأرض والسـماء نورا ويصـلون مائة ركعة ويقرءون فى كل ركعة بأم القرآن وسورة الاخلاص يكررونها عشرا وبعض الناس يصلون فى الحجر منفردين وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف وبعضهم قد خرجوا للاعتمار ٠

واذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند الأمير ويقع الاحتفال عند المسجد الحرام بتجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نورا ويسطع بهجة واشراقا وتتفرق الأمة فرقا ٠

وليلة استهلال شوال مفتتح أشهر الحج يوقدون المشاعل ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم فى ليلة السابع والعشرين من رمضان وتوقد السرج فى الصوامع من جميع جهاتها ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذى بأعلى أبى قبيس ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك فى تهليل وتكبير وتسبيح والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء ، فاذا صلوا صـلاة الصبح أخذوا فى أهبة العيد ولبسوا أحسن ثيابهم وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف وبه يصلون صلاة العيد لأنه لا موضع أفضل منه ٠

وفى السابع والعشرين من شهر ذى القعدة تشمر أستار الكعبـة الشريفة زادها الله تعظيما ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضى الوقفة بعرفة ٠

وفى غرة ذى الحجـة تضرب الطبول والدبادب فى أوقات الصلوات وبكرة وعشية اشعارا بالموسم المبارك ولا تزال كذلك الى يوم الصعود الى عرفات ، فاذا كان اليوم السابع خطب الخطيب خطبة صلاة الظهر ، خطبة

بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلنهم بيوم الوقفة فاذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود الى منى وأمراء مصر والشام والعـراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى ، وتقع المباهاة والمفاخرة بين مصر والشام والعراق فى ايقاد الشمع ، ولكن الفضل فى ذلك لأهل الشام ، وفى اليوم التاسع يرحلون من منى بعد صلاة الصبح الى عرفة فيمرون فى طريقهم بوادى محصر ويهرولون ويستصحب الناس حصايات الجمار ثم ينحدرون ويذبحون ويحلقون ويحلون من كل شيء الا النساء .

هذه هى العادات والشعائر الدينية فى مهبط الوحى وقمة المجتمع الاسلامى مكة .

وفى مصر لمح ابن بطوطة عادات أمراء المماليك فى بنـاء الخـوانق « الزوايا » التى يقدم للفقراء فيها ما يشتهون من طعام ، يأخذ الرجل منهم خبزه ومرقه مرتين فى اليوم لا يشاركه فيهما أحد ، ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ، كما يأخذ الرجل منهم مرتبا شهريا من عشرين درهما فى الشهر الواحد الى ثلاثين ، ولهم حلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح ، ويجلس كل منهم على سجادة والملاحظة الاولى التى نخرج بها من حديث ابن بطوطة عن الفترة التى قضاها بمصر هو الكرم الذى توضـحه الصـورة السابقة مثلما توضحه أيضا الحفاوة التى قابل بها كل العلماء فى مصر ابن بطوطة حينما سـعى اليهم ، والملاحظة الثـانية هى استتباب الأمن والنظام حتى انه عبر عن اعجابه بالنظام الكائن فى دمياط حينما حكى انه لا يسمح لأحد بالخروج منها الا بالتصريح المستصدر من الوالى ، فمن كان ذو منزلة رفيعة منح جوازا يبيح له الخروج ، على حين توضع علامة على ذراع عامة الناس بمثابة التصريح لهم .

وفى دمشق اهتزت نفس ابن بطوطة لوقف الاوقاف لأغراض كثيرة فمنها أوقاف لاعـانة العـاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنها أوقاف لاعانة البنات على التجهيز الى أزواجهن وهن اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الاسارة ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون وما يلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنا أوقاف على تعديل الطرق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منهـا رصيفان فى جنبيه يمر عليها المترجلون ويمر الركبان بين ذلك .

ومن أبرز المظاهر الاجتماعية التى صادفها ابن بطوطة بجميع البلاد التركمانية الرومية فى كل بلد ومدينة وقرية ظاهرة « الأخية الفتيان »

الذين وصفهم كأنه لا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على يدى الظلمة ومن لحق بهم من أهل الشر ، والآخى عندهم رجل المجتمع عند أهل صنعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم وتلك هى الفتوة ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج اليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية فان ورد فى ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافته لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف ، وان لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صنعتهم بالغد وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم .

ومن الالتقاطات التى تشبه ماتطالعنا به صحف الصباح فى أيامنا هذه من أن يحرق كاهن بوذى نفسه احتجاجا على نظام معين ، رأى ابن بطوطة امرأة من كفار الهنود متزينة راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر والأطبال والأبواق بين يديها ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود واستأذنوا السلطان فى احراقها فيحرقونها . وحكى أن ثلاث زوجات اتفقن على احراق أنفسهن بعد موت أزواجهن ومن أحرقت نفسها بعد موت زوجها أحرز أهل بيتها شرفا ونسبوا ذلك الى الوفاء .

ولقد سار ابن بطوطة مع أصحابه ليرى كيفية صنع النساء فى الاحتراق فسار معهم نحو ثلاثة أميال حتى انتهوا الى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال وكأنه بقعة من بقع جهنم وأوتيت كل واحدة بثوب قطن خشن غير مخيط فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها وأضرمت النيران وحين زاد اشتعالها رمت النساء بنفوسهن الى النار كما شاهد ابن بطوطة من يغرقون أنفسهم تقربا الى ربهم فى اعتقادهم .

ويشهد ابن بطوطة بالله وملائكته ورسله على ملك يعتبر نموذجا انسانيا محيرا ويقول ابن بطوطة ان هذا الملك هو أحب الناس فى اسداء العطايا واراقة الدماء فلا يخلو بابه من فقير يغنى أو حى يقتل وقد شهرت فى الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة وحكاياته فى الفتك والبطش وهو مع ذلك أشد الناس تواضعا وأكثرهم اظهارا للعدل والحق وشعائر الدين عنده محفوظة وله اشتداد فى أمر الصلاة والعقوبة على تركها ، ويظل ابن بطوطة يعدد أبوابه وترتيب جلوسه للناس ودخول الغرباء وأصحاب الهدايا اليه ثم يحكى تجربته معه ، كما يصف ذكر خروجه فى العيدين

وكيف يجلس يوم العيد فوق السرير الأعظم أمامه المبخرة العظمى ويذكر ترتيب قدومه من سفره ، وكيف تتزين الفيلة وكيف ترفع الشعارات الكبيرة المزركشة على ستة عشر فيلا منها وكيف تزين حيطان الشارع الذى يمر به من باب المدينة الى باب القصر ، هذا الى ترتيب الطعام الخاص والعام ٠

ويحكى ابن بطوطة مشاهداته لجود هذا الملك وكرمه وهو الذى سمى الغرباء بالأعزة وقدمهم على أهل البلاد الأصليين فأسبغ عليهم الأنعام وولاهم الخطط الرفيعة ، ثم يحكى ابن بطوطة عن عطاء هذا الملك لأحد التجار ولشيخ الشيوخ ركن الدين والواعظ الترمذى ناصر الدين ٠ وعلى ماقدم ابن بطوطة من تواضع هذا السلطان وانصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة بينما كان كثير التجاسر على اراقة الدماء لا يخلو بابه من مقتول الا فى النادر ويقول ابن بطوطة « وكنت كثيرا ما أرى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هناك » ويستطرد فيقول انه قتل أخاه ثم قتل ثلاثمائة وخمسين رجلا فى ساعة واحدة كما عذب الشيخ شهاب الدين وقتله ، كما يذكر ابن بطوطة قتله للفقيه المدرس عفيف الدين البكاسانى وفقيهين معه ثم يذكر أيضا قتله لفقيهين من أهل السنة كانا فى خدمته كما يذكر قتله للشيخ هود وسجنه لابن تاج العارفين وقتله لأولاده ثم قتله للشيخ الحيدرى وقتله لطوغان وأخيه وابن ملك التجار ويذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات ٠ وأخيرا تبدو صورة أخرى من نيرون حارق روما فى وجه هذا السلطان اذ خرب المدينة بعد أن نفى أهلها وقتل الأعمى فيها والمقعد ٠ والسلطان اسمه محمد شاه أثبتناه هنا كصورة انسانية اجتماعية شاذة توضح الى حد كبير طبيعة بلاد الهند التى عاش فيها ابن بطوطة أطول فترات اغترابه ٠

ويمكننا أن نرى منزلا للضيافة من الداخل اذا مازرنا مع ابن بطوطة الدار التى أعدت لنزوله فى دلهى فنجد فيها ما يحتاج اليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير للرقاد ، وأسرتهم خفيفة يحمل السرير منها الرجل الواحد ولابد لكل أحد أن يستصحب السرير فى سفره يحمله غلامه على رأسه وهو أربع قوائم مخروطة يعرض عليها أربعة أعواد وينسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن ، فاذا نام الانسان عليه لم يحتج الى ما يرطبه به لأنه يعطى الرطوبة من ذاته وجاءوا له مع السرير بمضربتين ومخدتين ولحاف كل ذلك من الحرير وعاداتهم أن يجعلوا للمضربيات واللحف وجوها تغشيها من كتان أو قطن أبيض فمتى توسخت غسلوا الوجوه وبقى مافى داخلها مصونا ٠ أما طقوس الوفاة فيحكيها ابن بطوطة

من خلال وفاة ابنته اذ ماتت بعد وصوله بشهر ونصف وهى دون السنة ولما اتصل خبر وفاتها بالوزير أمر أن تدفن فى زاوية بناها خارج دروازة، وعادتهم أن يخرجوا الى قبر الميت صبيحة اليوم الثالث من دفنه ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير ويجعلون على القبر الازاهير وهى لا تنقطع هنالك فى فصل من الفصول كالياسمين وقلشية والريبول والنسرين ، ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف فيقرءون القرآن فاذا ما ختموه أتوا بماء بالجلاب فسقوه الناس ثم يصب عليهم ماء الورد صبا ويعطون التمبول وينصرفون.

ومن أجمل ما أورد ابن بطوطة حديثه عن سوق طرب آباد وهى سوق المغنين والمغنيات بمدينة دولة آباد وهو من أجمل الأسواق وأكبرها ، فيه الدكاكين الكثيرة كل دكان له باب يفضى الى دار صاحبه . والحانوت مزين بالفرش وفى وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد وهى متزينة بأنواع الحلى وجواريها يحركن مهدها ، وفى وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من كل خميس وبين يديه خدامه ومماليكه وتأتى المغنيات طائفة بعد أخرى فتغنين بين يديه وترقصن الى وقت المغرب ثم ينصرف وفى تلك السوق مساجد للصلاة ويصلى الأئمة فيها والنساء المغنيات التراويح فى شهر رمضان .

ويتحدث ابن بطوطة عن أهل جزائر ذيبة المهل فيقول انهم أهل صلاح وديانة وايمان صحيح ونية صادقة أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب واذا رأى الانسان أحدهم قال« الله ربى ومحمد نبى وأنا أمى مسكين » وأبدانهم ضعيفة وهم ليسوا أهل حرب وقتال انما هم أهل نظافة وتنزه عن الأقذار وأكثرهم يغتسلون مرتين فى اليوم تنظفا لشدة الحر بها وكثرة العرق ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقديشيو ، ومن عادتهم انهم اذا صلوا الصبح أتت كل امرأة الى زوجها أو ابنها بالمكحلة وبماء الورد ودهن الغالية فيكحل عينيه ويدهن بماء الورد والغالية فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه ، ولباسهم فوط يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوضا عن السراويل ويجعلون على ظهورهم شبه المحارم وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم يعوضها بمنديل صغير ، واذا لقى أحدهم القاضى أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل الى منزله ، ومن عوائدهم اذا تزوج رجل منهم ومضى الى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها الى باب البيت وجعلت عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه الى

البيت وشماله وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره فاذا وصل اليها رمت على رجليه ثوبا يأخذه خدامه ، وان كانت المرأة هى التى تأتى الى منزل الرجل بسط داره وجعل فيها الودع ورمت المرأة عند الوصول اليه الثوب على رجليه ، وكذلك عادتهم فى السلام على السلطان عندهم ، لا بد من ثوب يرمى عند ذلك ، ثم يتحدث ابن بطوطة عن النساء الجميلات العاريات الا من مئزر يلففن به جزءا تحت خصورهن النحيلة ، ويستاء ابن بطوطة من أنهن لا يغطين رءوسهن وحتى السلطانة لا تغطى رأسها ، ويمشطن شعورهن ويجمعنها الى جهة واحدة ويمشين فى الأسواق وسائر أجسادهن مكشوفة ، فى أرجلهن الأساور تجعل المرأة منها جملة فى ذراعيها بحيث تملأ مابين الكوع والمرفق ، وهى من الفضة ، ولا يجعل أساور الذهب الا نساء السلطان وأقاربه ولهن الخلاخيل وقلائد ذهبية يجعلنها على صدورهن ويسموهن البسدرد ، ومن عجيب أفعالهن أنهن يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها ، وعلى مستأجرهن نفقتهن ولا يرين ذلك عيبا ويفعله أكثر بناتهم فتجد فى دار الانسان الغنى منهن عشرة أو عشرين ، وكل ما تكسره من الأوانى يحسب عليها قيمته ، وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر. والتزوج فى هذه الجزر سهل لقلة الصداق وحسن معاشرة النساء ، واذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء وعند السفر يطلقوهن وهو نوع من نكاح المتعة ، وهى لا يخرجن من بلادهن أبدا ولم ير ابن بطوطة فى الدنيا أحسن معاشرة منهن ولا تكل المرأة عندهم من خدمة زوجها الى سواها بل هى تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه وتغسل يده وتأتيه بالماء للوضوء وتغم رجليه عند النوم ، ومن عوائدهن ألا تأكل المرأة مع زوجها ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة ، ويقول ابن بطوطة انه تزوج فيها نسوة أكل مع بعضهن بعد محاولة ولم يستطع مع الأخريات اللائى لم يأكلن معه وحتى لم يستطع أن يراهن يأكلن ولم تنفعه فى ذلك حيلة .

ويتحدث ابن بطوطة عن أهل الصين ويذكر عاداتهم فى استقبال المراكب وتدوين ما عليها ومن عليها ومنعهم التجار من الفساد ببلادهم فكانوا ينزلون المسلمين عند مسلم متوطن أو فى فندق معروف وان أراد التسرى اشترى له جارية وأسكن بدار يكون بابها فى الفندق وينفق عليها وأهل الصين يبيعون أولادهم وبناتهم وذلك ليس عيبا عندهم غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ولا يمنعون أيضا منه ان اختاروه ، وكذلك ان أراد التزوج تزوج ، أما انفاق المال فى الفساد فشىء لا سبيل اليه لأنهم يقولون لا نريد أن يسمع فى بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم فى بلادنا لأنها أرض فساد وحسن فائت .

ويقـول ابن بطوطة ان بلاد الصـين آمن البلاد وأحســنها حالا للمسافرين فان الانسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معـه الأموال الطائلة فلا يخاف على نفسه أو على أمواله ، وترتيب ذلك أن لهم فى كل نزل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفرسان والرجال ٠

وفى الختام يعدد ابن بطوطة محاسن ومساوى أهل السودان فيقول عنهم انهم أبعد الناس عن الظلم وسلطانهم لا يسـامح أحدا فى شىء منه كما أن الأمن مستتب فى بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض ولو كان القناطير المقنطرة انما يتركونه بيد ثقة من بنى لونه ، وهم يواظبون على الصلوات ويلتزمونها فى الجماعة ويلبسون يوم الجمعة الثياب البيض الحسان ويعنون بحفظ القرآن الكريم ويجعلون لأولادهم القيود اذا ظهر منهم تقصير فى حفظه ٠

أما ما ساء ابن بطوطة فهو ظهور البنات الصغار والخدم والجوارى عرايا باديات العورات ، وكثيرا ما رآهن على تلك الحال فى رمضان حيث أنه كان من عاداتهم أيضا الافطار بدار السلطان والبنات هن اللاتى كن يحملن الطعام ، ومما ساءه أيضا دخول النسـاء على السلطان عرايا غير مستترات وحتى بنات السلطان الناهدات كن عاريات ٠ ومن المسـاوى أيضا أكل بعضهم الجيف والكلاب والحمير ٠

هذه بعض الصور الاجتماعية فى مصر والحجاز ودمشـق والهنـد والسودان والصين أوردناها من كل قطر لمحة لتموج الحركة الاجتماعيـة أمام عينى القـارىء ويتأمل مدى حـرص المجتمع الاسـلامى على الدين الحنيف ، وكيف برزت الصورة المسلمة ووضحت بازاء مجتمع كافر يهاب الاسلام والمسلمين ، وان عدد فيها ابن بطوطة بعض المساوى فقد أوردها كمسلم ناقد غيور ٠

(ج) الشخصيات العلمية والدينية

بعد أن قطعنـا مع الرحالة الـكبير هـذه الرحلة الاجتمـاعية عبر المجتمعات الاسلامية المتعددة التى ذكرناها يجدر بنا أن ننتقل معه للقاء الشخصيات العلمية والدينية التى تقع فى قمة هذا المجتمع من الناحية الفكرية والدينية والثقافية ونجلس الى هؤلاء العلماء لحظات قلائل نتعرف فيها عليهم ونمر خفافا كالنسيم مثلما كان يعبرهم الرحالة الكبير ٠

وأول هذه الشخصيات قاضى الأنكحة بتونس أبو عبد الله محمد ابن أبى بكر بن على بن ابراهيم النفراوى ، والى جواره فى نفس المدينة أحد الفضلاء الشـــيخ صالح أبو عبد الله محمد الحسينى بن عبد الله القرشى الزبيدى الذى كان قاضيا لتونس ٠

أما الامام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج فقد قال له حين التقى به بالاسكندرية (أراك تحب السياحة والجولان بالبلاد) فقال له ابن بطوطة : نعم ٠ فقال له (لا بد لك ان شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكريا بالسند وأخى برهان الدين بالصين وأبلغهم منى السلام) ٠ ويقول ابن بطوطة ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة وأبلغتهم سلامه ٠

كما لقى بالاســكندرية قاضيها عمــاد الدين الكندى وهو امام من أئمة علم اللسان والقاضى فخر الدين وهو فاضل من أهــل العلم ووجيه الدين الصنهاجى ، ولقــد رحل ابن بطوطة الى فوة للقاء الشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق أبى عبد الله المرشدى وهو من كبار أولياء الله المكاشفين وفى ابيار التقى بعز الدين المليجى الشــافعى الكريم الشــمائل الكبير القدر ٠

وفى المحلة التقى بقاضيها عز الدين بن الأشمونين ونائبه الفقيه أبى القاسم بن بنون المالكى ، وفى محلة منوف التقى بقاضيها شرف الدين الدميرى ٠

وحين قدومه الى القاهرة كان قاضى قضاة الشــافعية هو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا واليه ولاية القضاة فى مصر وعزلهم وهــو القــاضى الامام العــالم بدر الدين بن جمــاعة وابنه عز الدين ومنهم قاضى قضاة المالكية الامام الصــالح تقى الدين الاخنــائى ومنهم قاضى قضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريرى وكان شــديد السطوة لا تأخذه فى الله لومة لائم وكانت الامراء تخافه ٠ ولقد ذكر ابن بطوطة ان السلطان النــاصر قال يوما لجلســائه انى لا أخاف من أحد الا من شمس الدين الحريرى ولم يعرف ابن بطوطة شــيئا عن قاضى قضــاة الحنبلية الا ان اسمه عز الدين ٠

ولقد أورد ابن بطوطة فى كتابه أسماء العلمــاء مثل شمس الدين الاصبهانى امام الدنيا فى المعقولات ، وشرف الدين الزواوى المالكى والعالم النحوى أثير الدين أبو حيان ٠

وفى غزة التقى بالمدرس الصالح المعمر الامام الخطيب برهان الدين كما التقى فى حلب بالقاضى كمال الدين بن الزملكانى الشافعى المذهب العالى الهمة الكبير القدر الكريم النفس الحسن الاخلاق المتفنن فى العلوم.

وكان قاضى الحنفية الامام المدرس ناصر الدين بن العديم حسن الصورة والسيرة .

وممن التقى بهم ابن بطوطة شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدث شمس الدين أبى عبد الله .

كما ذكر ابن بطوطة أئمة دمشق الثلاثة عشر وأولهم امام الشافعية جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى الفقيه الكبير وهو خطيب المسجد ، وامام المالكية الفقيه أبو عمر بن أبى الوليد بن الحاج التجيبى القرطبى الأصل الغرناطى المولد نزيل دمشق وهو يتناوب الامامة مع أخيه ، ثم امام الحنفية الفقيه عماد الدين الحنفى المعروف بابن الرومى وهو من كبار الصوفية وله شياخة الخانقاه الجنوبية وله أيضا خانقاه بالشرف الأعلى ، ثم امام الحنابلة الشيخ عبد الله الكفيف أحد شيوخ القراءة بدمشق .

وفى فنون العلم انعقدت حلقات الدرس يعلم فيها العالم الصالح برهان الدين بن الفركح الشافعى والعالم الصالح نور الدين أبو اليسر الصائغ من المشتهرين بالفضل والصلاح والامام العالم شهاب الدين بن جبيل من كبار العلماء الذى هرب من دمشق خوفا من أن يقلد القضاء ، والامام الفاضل بدر الدين على السخاوى .

وكان قاضى قضاة الحنفية بدمشق عماد الدين الحورانى وكان شديد السطوة وعليه يتحاكم النساء وأزواجهن وكان الرجل اذا استدعى أمام هذا القاضى وسمع اسمه أنصف من نفسه قبل الوصول اليه . أما قاضى الحنابلة فهو الامام الصالح عز الدين بن مسلم الذى كان من خيار القضاة والذى مات بمدينة الرسول (صلعم) .

ولقد درس ابن بطوطة صحيح البخارى بجامع بنى أمية بدمشق على الشيخ المعمر رحالة الآفاق ملحق الأصاغر بالاكابر شهاب الدين أحمد ابن أبى طالب بن أبى النعم بن حسن بن على بن بيان الدين مقرىء الصالحى المعروف بابن الشحنة الحجازى .

وكان قاضى مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الامام

محيى الدين الطبرى وهو فاضل كثير الصدقات والمســـاواة للمجاورين حسن الاخلاق كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة يطعم الطعام الكثير فى المواسم ٠

ومن الشـــخصيات التى لاقاها ابن بطوطة الملك المترهب جرجيس الذى ولى الملك لابنه وانقطع للعبادة وبنى مانستارا ولقد حيا ابن بطوطة بالعربية ثم سأله عن بيت المقدس ، وكان قاضى القسطنطينية كافال شيخا حسن الوجه عليه لباس الرهبان ، ولقد دعى ابن بطوطة الى داره بعد أن علم انه ضيف الملك المترهب جرجيس ٠

ومن علماء دلهى الشيخ الصالح العـالم محمود الكيه ويزعم الناس عنه انه ينفق من الكون لان ليس له مال ظاهر ولقد رآه ابن بطوطة مرات ويقول انه قد حصلت له بركته ، والشيخ الصالح العالم علاء الدين النيلى والشيخ العـالم الصالح نظام الدين البزوانى الذى يعظ الناس كل يوم جمعة ، والامام الصالح العالم العـابد الورع الخاشع فريد دهره ووحيد عصره كمال الدين عبد الله الغارى نسبة الى غار كان يسكنه خارج دلهى٠

هؤلاء هم أهم الشخصيات العلمية الاسلامية التى قابلت ابن بطوطة فى رحلته واعتقد انه من المفيد أن أسوق وصفا ليـوم جديد من الايام الاسلامية هو يوم المحمل فى مصر وذلك حتى تكمل الصورة ٠

يقول ابن بطوطة : « ان يوم المحمل يوم مشهود يركب فيه القضاة الاربعة ووكيل بيت المال والمحتسب ومعهم أعـلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ويصلون جميعا الى باب القلعة ، دار الملك الناصر ، فيخرج اليهم المحمل على جمل ، وأما الامير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة فيأخذ معه عسكره والسقائين على جمالهم ويجتمع لذلك أهل القاهرة رجالا ونساء ويطوفون بالمحمل بمدينتى القاهرة ومصر والحداة يحدون أمامهم ويكون ذلك فى شهر رجب فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الاشـواق وتتحرك البواعث ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده فيأخذ فى التأهب والاستعداد » ٠

ويذكر هذا اليوم مضافا الى الحديث عن أيام العيد فى مكة والايام الاسلامية وقد أورد ابن بطوطة فى كتابه الفريد حوالى الخمسين حـكاية تستحق وحدها دراسة متأنية متأملة كما أورد شعرا كثيرا فى أغراض متعددة ٠

ولقد كان لابن بطوطة ملامحه الانسانية المتميزة ، كما كان له كثير من التصرفات الانسانية بمعنى ان الاسلامية وضحت فى كثير من تصرفاته التى ينبغى أن يلتفت اليها وحدها أيضا ٠

الشكل السياسى للمجتمع الإسلامى
من خلال سلاطينه وملوكه

وبعد أن أثبتنا خط السير الفعلى للرحالة ابن بطوطة حسبما ورد بكتابه تحفة النظار فى عجائب الأمصار وغرائب الأسفار ، وبعد أن زرنا معه المدن الهامة وتأملنا ملامحها المميزة ونظرنا الى الناس وعاداتهم وتقاليدهم واجتمعنا بالشخصيات العلمية التى التقى بها الرحالة الكبير وجب علينا الآن أن ننتقل للتعرف على ملامح المجتمع الاسلامى السياسية فى عصره ، ولنبدأ بقمة هذا المجتمع الهرمية فنتعرف بالأسماء على سلاطين وملوك هذا العصر فى البلاد التى مر بها الرحالة الكبير ، ونستخلص من التعرف على أسماء هؤلاء السلاطين وبعد أن نتمعن فى الصفات والنعوت التى أضفيت عليهم أو بالتحديد على ذوى الحيثية الهامة منهم فى العالم الاسلامى يمكننا أن نعرف أية محاور كانت تحكم عقول هؤلاء السلاطين وبالتالى تفكير الناس السياسى ٠

وعلى هذا نرى أن أول من يرد اسمه من السلاطين فى كتاب الرحالة ابن بطوطة اسم سلطان تونس السلطان أو يحيى ابن السلطان أبىزكريا يحيى ابن السلطان أبى اسحق ابراهيم ابن السلطان أبى زكريا يحيى ابن عبد الواحن بن أبي حفص ، ويصفه ابن بطـــوطة بأنه أمير المؤمنين ناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين الذى رويت أخبار جـــوده موصولة الاسناد بالاسناد واشتهرت آثار كرمه شهرة واضحة الاشهاد ٠

وفى مصر يجد ابن بطوطة على رأسها الملك الناصر أبا الفتح محمد ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى ٠

ويجد المدينـــة المنورة تحـــت امرة كبيش بن منصور بن حجـــار ، ويجد مكة معقودة امارتها للأميرين الشريفين أسعد الدين رميثة وســـيف الدين غطيفة ٠

ويجد ايذج وتستر تحت راية السلطان أفراســـياب ابن السلطان أتابك أحمد ٠

أما شيراز فكان حكمها للملك أبى اسحق بن محمد شاه ينجو ٠

وكانت العراقين وخراسان تحت حكم السلطان أبى سعيد بهادرخان ٠

وكانت ماردين تحت حكم الملك الصالح الملك المنصور ٠

وكان يحكم سواكن الشريف زيد بن أبى ثمى ابن أمير مكة ، وكان سلطان حلى هو تامر بن ذويب من بنى كنانة ٠

وكانت اليمن أيام أن ذهب اليها الرحالة الكبير معقودا لواؤها للسلطان المجاهد نور الدين على ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود ابن السلطان المظفر يوسف بن على رسول ٠

وحينما أبحر الى مقديشيو كان حاكمها يسمى بالشيخ وكان هو الشيخ أبو بكر ابن الشيخ عمرو ٠

أما كلوا فكان سلطانها أبا المظفر حسن المكنى بأبى المواهب ٠

وكان السلطان الملك المغيث بن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن هو حاكم الظفار ورث امارتها عن أبيه الذى كان أميرا عليها من قبل حاكم اليمن ٠

وانعقدت امامة عمان للسلطان عربى أبى محمد بن نبهان من قبيلة الأسد ابن الغيث ٠

وكانت هرمز تحت امرة قطب الدين تمتهن بن توران شاه ٠

أما لار فكان يحكمها جلال الدين التركمانى ، والعلايا كان على رأس مجتمعها يوسف بن قرمان ٠

أما انطاكية فكانت محل خضر بك بن يونس بك وكذا كانت أكريدور لأبى اسحق بك بن الدندار بك ٠

أما قلحصار فكانت تحت امرة سيدى محمد حلبى ٠

وكان حاكم لاذق يدعى ينج بك ، وكان سلطان ميلاس المكرم شجاع الدين أرخان بن المثنى كما كان السلطان الملك بدر الدين بن قرمان يحكم مدينة اللاندرة ٠ وكانت بركه من أعمال السلطان محمد بن ايدينا ولقد صلى ابن بطوطة مع صاروخان سلطان مغنيسيا ابان زيارته للمدينة ولاحظ ابن بطوطة أن حاكم برغمه ليس مسلما وقرر أنه ليس هناك مسجد

بالمدينة وذكر أن بلى كسرى تحت امرة أيدرخان وقرر أن حاكم برصى اختيار الدين أزمان بك بن عثمان يقاتل الكفار ويحاصرهم • كما ذكر أنه أدى صلاة الجمعة فى كيردبولى مع سلطانها شاه بك وقال عن سلطان قصطومنيا السلطان المكرم ياد شاه • ولقد تنقل ابن بطوطة كثيرا فى أعمال السلطان المعظم محمد أوزبك خان وقرر أن « السرا » هى عاصمة بلاده •

وثانى سلاطين الكفار التى لاقاها الرحالة الكبير كان سلطان القسطنطينية تكفور •

ولقد أورد ابن بطوطة فى كتابه معنى اسم أمير خوارزم الأمير الكبير قتلودمور وقال عن الكلمة انها تعنى (الحديد المبارك) •

وكان يحكم بلاد ماوراء النهر السلطان المعظم علاء الدين طرم شرين وفى هرات كان السلطان المعظم حسن ابن السلطان غياث الدين • وكان أمير ملتان هو قطب الملك ، ولقد عدد ابن بطوطة سلاطين دلهى هذه المدينة الكبيرة التى عاش فيها فترة طويلة من الزمن سمحت له أن يشهد عددا كبيرا من سلاطين هذه المملكة فبدأ بالسلطان شمس الدين للمشى الذى تبعه السلطان ركن الدين والسلطانة رضية والسلطان ناصر الدين ثم السلطان غياث الدين وعدد كبير آخرهم أبو المجاهد محمد شاه •

وثالث الكفار الذين أورد اسمهم ابن بطوطة هو حاكم مدينة فاكتور المدعو ماسرو والذى قال عنه انه كافر وان قائد جنده مسلم وقال ان مدينة منجرور التى يحكمها رامدو بها أربعة آلاف من المسلمين •

ويورد ابن بطوطة فى باب الحكايات حكاية اسلام سلطان جرافتين والقصة غريبة مثيرة اذ ذكر أن سلطان ميناء قلقوط كافر يدعى بالسامرى ، وذكر عن حاكم مدينة كولم التيرورى أنه يعظم المسلمين، وعن بلاد المعبر قال ابن بطوطة ان حاكمهم غياث الدين الدامغانى حارب الكفار ، ويقرر الرحالة الكبير أن سلطان جاوه الملك الظاهر شافعى المذهب وحينما أوفد الرحالة الكبير الى الصين التى دعاها مملكة الكفار وجد على قمتها باشاى •

وحينما زار مالى وجد أن سلطانها هو منسى سليمان ، وفى طريق العودة وجد ابن بطوطة أن بعض السلاطين الذين لاقاهم فى رحلته الأولى قد ذهبوا عن عروشهم ووجد خلفاء لهم نورد أسماءهم فكان حاكم العراقين وخراسان الشيخ حسن ابن عمة السلطان أبى سعيد بهادرخان وعند توقفه فى مصر فى طريق العودة وجد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر

محمد ابن الملك المنصور قلاوون ،وكذلك كان سلطان تونس الجديد هو أبو سعيد بن أبى يوسف بن عبد الحق ٠

هذه هى أسماء وشخصيات السلاطين والملوك الذين كانوا على رأس المجتمع الاسلامى المترامى الأطراف الواسع المساحة كلهم عرب أسـياد تحس من أسمائهم الاسلام والعروبة والغيرة على الدين والكفاح والجهاد فى سبيله ٠ هذا وربما برزت بعض الأسماء التركية الا أن هذا لا ينفى دوران كل سلاطين تلك البلاد بين محور الاسلام والعروبة ٠

وربما كشفت الأسماء والصفات المرافقة لهـا ، تلك التى أوردها الرحالة الكبير، بعض الضوء على هذه الملامح الاسلامية العربية التى نستشفها من أسمائهم وصفات هذه الأسماء ٠

فلقد أورد ابن بطوطة عن سلاطين لانحددهم لأننا بصدد استشفاف الروح العامة للعصر لا بصدد تمييز ومقارنة بين سلطان وسلطان ٠

قال ابن بطوطة « أمير المؤمنين ناصر الدين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، الذى رويت أخبار جوده موصولة الاسناد بالاسناد ، وشهدت آثار كرمه شهرة واضحة الاشهاد وتحلت الأيام بحلى فضله ، ورتع الأنام فى ظل رفقه وعدله ، الامام المقدس ، الذى فل حد الشرك صدق عزائمه ، وأطفأت نار الكفر جداول صـوارمه ، وفتكت بعباد الصـليب كتائبه ، وكرمت فى اخلاص الجهاد مذاهبه » ٠

هذه هى بعض النعوت التى أوردها فى وصف السلاطين ، وبالتحليل نجد أن أولها تمتع به لأول مرة فى الاسلام ثانى الخلفاء الراشـدين ، وناصر الدين التى توحى بمدى غيرة هذا السـلطان على الدين والرغبـة الدائمة الملحة فى رفعته والعمل من أجل نصرته كما أن المجاهد فى سبيل رب العالمين توضح نفس المعنى وان زادت على الغيرة السعى والجهاد والسفر والمشقة فى سبيل الله والدين : أما تلك التى تنعت السلطان بأنه هـو الذى رويت أخبار جوده موصولة الاسناد بالاسناد وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الاشهاد فهى شديدة الشبه بما ضمنه الشعراء قصائدهم

للملوك والأمراء طامعين فى البذل ، وتحكى الرحلة أن ابن بطوطة كان دوما مادحا للملوك رغم اختلافه الشديد مرات مع أحدهم .

وتسير فى نفس المعنى عبارة « وتحلت الأيام بحلى نعمه ورتع الأنام فى ظل رفقه وعدله » ، وان أضافت لمحة اجتماعية عن الناس الراغبين فى ظل العدل والرفق ومن جديد تعود نغمة الغيرة على الدين ومناهضة الشرك فى نعوت السلاطين فنرى أنه الذى فل حد الشرك صدق عزائمه وأطفأت نار الكفر جداول صارمة ، فالحد قد فل بصدق العزيمة ونار الكفر قد أطفئت بالسيوف القواطع ، ومثلها تماما عبارة « وفتكت بعباد الصليب كتائبه وكرمت فى اخلاص الجهاد مذاهبه » بمعنى انتهاء أمر الكفار المشركين اذ سارت الكتائب المسلمة وأبادتها بأمر من أجل الاخلاص فى الجهاد والذود عن دين الله .

وهكذا نرى أن ديدن السلاطين والملوك العرب والمسلمين بل وحتى الأتراك الذين دخلوا الاسلام كان لديهم من الغيرة الدينية والرغبة الدائمة فى الجهاد الكثير مما أعلى رأس هذه الأمة . ويدعو ابن بطوطة لأسرة ملكية فيقول « جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم المقدسة الحياطلة وتهتانه وجزاهم أفضل الجزاء عن الاسلام والمسلمين وأبقى الملك فى عقبهم الى يوم الدين » . دعوة تتعلق أكثر ما تتعلق بالرب الذى يجدد على هذه الأسرة الرضوان ويسقى قبورهم ـ التى جعلها ابن بطوطة ـ المطر خفيفة وثقيلة وكل ذلك بسبب أن يجزيهم الله عن مواقفهم من الاسلام والمسلمين ولذا يدعو لهم ابن بطوطة بأن يظل الملك فى نسلهم الى يوم الدين .

أما « الشرفين الأجلين » التى نعت بها أمراء مكة ربما وضحت أنهما لشرفهما وجلالهما تبوءا هذا المركز الجليل ذا الخطورة النادرة فى قلب العالم الاسلامى وربما استمدا هذا الشرف من تبوئهما هذا المركز .

وبعد أن درسنا حكاية ابن بطوطة وعشنا معه رحلاته العديدة وأحسسنا أهميتها وخطرها وتتبعنا خط السير الفعلى الذى مشاه مدينة مدينة ، وزرنا المدن الهامة ورأينا فيها أهم ملامحها العمرانية وعشنا مع الناس فى عاداتهم وتقاليدهم ، وبعد أن عرفنا أهم الشخصيات العلمية وسلاطين وملوك هذا المجتمع الاسلامى ننتقل الآن لنستخلص الكيفية التى صور بها ابن بطوطة هذا المجتمع الكبير .

التصوير المجتمعي عند ابن بطوطه

يقال ان الرجل هو الأسلوب ، ولقد كان ابن بطوطة رحالة كبيرا عالما دقيقا تميز عن أقرانه بعينين لماحتين مصورتين واسعتين لهما مدار واسع كبير . لم يترك شيئا لم يتأمله ويعرفه ويقارنه بما يماثله من الاشياء .. كان يلقى من ذهنه التواق شعاع تساؤل ينعكس فوق الشيء ليرد لهاتين العينين نور معرفة كبير .

تمتع ابن بطوطة بذاكرة مذهلة عادت من رحلاتها الكثيرة قوية تحفظ الكثير من أسماء المدن والسلاطين والعلماء والقضاة والمدرسين والأماكن ، لم يترك حادثة وقعت له فى الطريق أو فى مدينة نزل بها أو سمع عنها فى القديم دون أن تبرزها وتفرزها هذه الذاكرة الواعية ليثبتها فى كتابه .

ولقد كان للرجل أسلوب فى المشاهدة لا تفوته لمحة واحدة من هذه الدنيا الكبيرة الواسعة التى رحل اليها وعاشها وامتص قلبه نبضها وشم عبقها وأريجها واهتز عقله لأحداثها ومميزاتها ودون ملاحظاته عليها .

على طول الطريق وعبر امتداد الزمن كان ابن بطوطة يبدأ بتحديد المكان الذى هو فيه ويذكر المكان الذى هو راحل اليه لا يفوته أن يثبت ما مر به من أمكنة عبرت طريقه وكان لا يعرفها أو لم يسمع عنها ، ومثلما يحدد المكان كان يحدد الزمان تحديدا دقيقا ذاكرا لحظة بدء السير ولحظة نهاية المطاف .

كما أن الحال التى يبدأ فيها سيره كانت تأخذ منه دوما لفتة بارعة فيذكر الحقيقة حول مسيره منفردا أو فى مجموعة من التجار أو الأعراب أو الحجاج مبعوثا أم قاصدا محددا فى كل تلك الأحوال الهدف من الخطوة سواء استهدفت لقاء شخصية هامة أو زيارة مدينة كبيرة أو التعرف الى مشهد مبارك مقدس أو معرفة شجرة من الأشجار أو ثمرة من الثمار .

وكان الرحالة الكبير فى كل تلك الأحوال لا ينسى تصوير نفسه

من الداخل بصدق شجاع فيقرر حاله النفسية مسرورا كان أم مستاء خائفا أم مطمئنا ذارفا الدمع فى لحظة تأثر راسما الابتسامة لحظة الرضاء ٠

كان الرحالة الكبير يصف كل طريق مر به وسار فيه ، ذاكرا لكل ملمح فيه من الناحية الطوبوغرافية فيذكر ان كان سهلا منبسطا أم جبليا وعرا ، رمليا كان أم ترابيا محددا طوله بالميل والفرسـخ واليوم ذاكرا حاله من الناحية الاجتماعية آمنا كان أم تكتنفه اعصارات الغارات وتربصات قطاع الطرق ٠

كان ابن بطوطة لا ينسى ذكر كل هذه الملامح والى جوارها كانت ترد الحكايات والاحداث التى تلدها اللحظـات عبر الرحلة ويحكى ليس فقط ما رآه وعاينه بل يورد أيضا ما سمع ونقلته الشـفاه من حكايات مماثلة حول الموضوع الذى يحكى عنه ، بل لم ينس نفسه كشاعر قادر على حفظ الكثير من الأشعار من ايراد الأبيات التى تعلقت بأهداب الموضوع، هذه الأبيات التى قيلت فى مكان معين محدد أو مدحت شخصية كبيرة ما ٠

ومثلما كان يحس الطريق كان يصف الأمكنة ويحدد ملامحها لا يغفل عن أى منها ذاكرا حتى الجزئيات الصغيرة والتفاصيل الدقيقة معبرا عن مشاعره تجاهها مثلما يعبر عن مشاعره تجاه الشخص الذى يلاقيه ٠

كان ابن بطوطة حرصا منه دوما على اعطاء الصورة الواقعية كاملة يذكر حتى حالة الطقس الذى يبدأ فيه مسيره وكيف اكتنف الطقس طريقه وكيف انتهت رحلته قصيرة أم طويلة فيقول مثلا (ابان القيظ أو أصابنا مطر) ٠

كما أن الرحالة الكبير كان شديد الملاحظة للتصرفات الانسـانية وتقييمها وتصنيفها فيقول مفصلا « وذلك أول ما شاهدت من ظلم عمال الموحدين وولاتهم » أو « وأعارنى ما وعد به جزاه الله خيرا » ٠

وكما ذكرت من قبل كان الرحالة الكبير أمينا فى تصوير نفسه من الداخل طيلة أيام الرحلات العجيبة لدرجة اثبات الأحـلام والرؤى التى رآها فقصها وحاول تفسيرها وربطهـا بما ينوى أن يفعـل كما ربطهـا بمتتاليات الأحداث ٠

أورد ابن بطوطة كثيرا من الأقوال التى يمـكن أن تنضوى تحت مايسمى بالشئون الخاصة فيذكر حديث زواجه من فلانة وطلاقه منهـا لنزاعه مع والدها ثم يتحدث عن زواجه الثانى وهكذا لا يغفل هذه الأمور

حتى يحكى دوما عن زيجاته التى كانت آخرها قرينة السلطان المتوفى ، كما لمس كثيرا من علاقاته بالجوارى ولم يتحرج من ذكر انطباعاته عن النساء بصراحة علمية ٠

ومما يذكر فيشكر سعى الرحالة الحثيث الجاد للقاء العلماء والقضاء والأولياء والاستماع اليهم والتحدث معهم والأخذ عنهم والافاضة بما لديه معددا مآثر كل منهم ومميزاته وصفاته وأعتقد أننا أحسسنا بذلك حينما أوردنا أسماء العلماء الذين قابلهم ووضعناها الى جانب الصفات والنعوت التى أضفاها على كل منهم ، ومثلما أحس الأشخاص أحس ابن بطوطة المدن فكان ينعت المدينة بما فيها من ميزات واضحة بارزة ويقارنها بقريناتها ، ذاكرا أوجه الشبه ووجوه الاختلاف ، وحينما كان ابن بطوطة ينزل ركبه فى مدينة هامة كان يعمل فكره وعقله وعينه لالتقاط الأرقام وعمل الاحصاء الدقيق للحرفيين والعاملين والأشياء ،ومن ذلك ما ذكر عن مدينة القاهرة وما أورد من احصائيات ظلت دقيقة حية لدرجة أن سائحا مر بها بعده بست سنين فوجدها مطابقة للواقع تمام المطابقة كقوله « ويقال ان بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء وان بها ثلاثين مكاريا وان بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفا من مراكب السلطان والرعية تمر صاعدة الى الصعيد ومنحدرة الى الاسكندرية » ٠

وكان ابن بطوطة ملتقطا حساسا لكل ما يتعلق بالشعائر الدينية والعبادات والعادات والتقاليد فيذكر أيام الاسلام مثل يوم المحمل ويوم رؤية هلال رمضان وليالى رمضان وأيام الأعياد وما يجرى فيها من ترتيل لآى الذكر الحكيم وتلاوة للأوراد وذكر اسم الله ٠

وكان يمدح الحسن من العادات وغرضها ويذم السيىء منها ويستهجها بل ويحاول اصلاحها ومناهضتها ٠

أى أنه كان يورد ملامح الحياة الاجتماعية ايرادا تاما كاملا موضحا الصورة الواقعية وملقيا عليها من نفسه ومن تجربته كثيرا من الأضواء التى تبرز كل تفاصيلها ابرازا وافيا حتى لكأننا حين نقرأه نحس بأننا نعايش هذا العصر ونشم عبقه ٠

ومن المآثر التى تذكر لابن بطوطة عادة جميلة هى رغبته فى التعرف الى أكثر ما يمكن أن يتاح من مشاهد ورؤى ، فقد كان يرغب دوما فى السير فى طريق جديد ما استطاع الى ذلك سبيلا لينفسح أمامه دوما مجال

جديد للمشـــاهدة والرؤى فيقول « ومن عادتى فى سفرى ألا أعود الى طريق سلكتها ما أمكننى ذلك » ٠

ومثلما فتح عينيه جيدا على الطريق والمكان والعـــادات والتقاليد والايام ، وأصاخ بسمعه للكلمات فوق شفاه الناس فكان يلاحظ طريقة كل منهم وكيفية تصايحهم وكيف يستخدمون حروفهم ويرتبون كلماتهم، فنظر ابن بطوطة الى لغتهم ولاحظ مثلا أن خطيب الجمعة فى مسجد البصرة كان يلحن أى يخطىء فى قواعد النحو والصرف ويأسى ابن بطوطة على الايام الخوالى حينما كانت البصرة مهدا للعلم والمعرفة والثقافة واللغة ، ويلاحظ أيضا طريقة نطق بلدة معينة لحرف معين ويقول (ان النـاس فى قاتيا يبدلون الألف الأخيرة تاء تأنيث فى بعض الكلمات) ٠

وان كانت هذه حاسة ثقافية لدى ابن بطوطة فان تحقيقه للحكايات الدينية التى يسمعها كان أمرا يدعو للاعجاب اذ لم تتقبل عقلية الرجل كلمات الحكايات على عواهنها وعلاتهـــا وانما ألقى بدلو البحث فى ماء التحرى فمثلا عندما يزور بيت المقـــدس ويشاهد قبر ابراهيم يسـأل المدرس الامام الخطيب برهان الدين عن صحة كون قبر ابراهيم الخليل هناك ويورد اجابته التى تقول « ان كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور هى قبور ابراهيم واســحق ويعقوب على نبينـــا وعليهم السلام » ٠

ومن هنا نرى أن الرحالة الكبير كان لا يألو جهدا فى سبيل زيارة المقابر التى تضم رفات شخصيات دينية هامة أو أماكن مقدسة ، ويتخلل الرحلة بذكر هذه المزارات ســـواء أكانت فى الأراضى الحجازية أم فى القدس ٠

ونلمح أيضا النزعة المثقفة التى صاحبت الرحالة على طوال الطريق ، فعند نزوله الى مدينة ما كان يستفسر عن معنى اسمها محاولا رده لأصول تعقل فيسأل عن سر التســمية ومثال ذلك ما ذكر عن مدينة حلب فقـال « ويقال فى مدينة حلب ، حلب ابراهيم لأن الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه كان يسكنها وكان له الغنم الكثيرة فكان يسقى الفقراء والمساكين والوارد والصادر من ألبانها فكانوا يجتمعون ويسألون هـل حلب ابراهيم ؟ » ٠

ومثل ذلك أيضا ما قال عن نهر العاصى فقال « وقيل انه سمى بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل الى علو » ٠

ومثلما حدد ابن بطوطة بالارقام والاحصاءات الحرفيين والعمال كان يحصى المرافق العامة لكل مدينة كالمساجد والبيمارستانات والمدارس ٠

ومن أجمل الأشياء التى تلاحظ فى كتاب ابن بطوطة تلك التى تدور حول المواضع التى يتحدث عنها من وصف للمدن أو مدح للأشخاص أو المغانى ولم يكتف بذلك بل كان يورد أيضا البحر الذى انتظم أبيات الشعر المذكور ٠

وكانت نظرة ابن بطوطة الفاحصة تلاحظ الحالة الصحية للناس الذين يراهم فيتحدث عن الشيخ المعمر محمد بن على الذى تنوف سنه عن المائة وهو يتمتع بقوته ويحكى أنه دخل عليه مرة بستانا له وقد جمع الكهل حطبا ورفعه على كاهله ليأتى به منزله فى المدينة وقارن بينه وبين ابنه الذى قد أناف على الثمانين الا أنه قد احدودب ظهره ولا يستطيع النهوض ٠

ومن مميزات هذا العالم الرحالة أنه بعد بلوغه هذا السن واكتسابه لتلك الخبرات والتجارب وتوليه فى أكثر من مرة منصبا هاما يجلس كطالب علم شغوف الى حلقات الدرس بجامع بنى أمية بدمشق ليدرس فى أربعة عشر مجلسا يبدأ أولهما يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان المعظم سنة ٧٣٦ هجرية ويحدد آخرها بيوم الاثنين الثامن والعشرين من رمضان ، كما لاينسى تحديد الأستاذ المدرس (بقراءة الامام الحافظ مؤرخ الشام على الدين أبى محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزانى فى جماعة كبيرة تتدارس صحيح الامام أبى عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفى البخارى) ٠

ويجاز هذا الرحالة فى دمشق أى يحصل على أجازة علمية ٠

ومن أجمل الأمور المتعلقة بالعلم دراسة ابن بطوطة وتعلمه للغتين التركية والفارسية والاستفادة بهما حتى يفهم عن أهل هذه اللغات أكبر قدر ممكن من المعلومات ٠

ومن هنا نرى أن علمه وتدينه ورغبته الدائمة فى التعلم كانت تضعه باستمرار اماما ومقدما ومبجلا وجليلا لدى الشخصيات التى لاقاها وجلست اليه وشرف بها وسعدت به ٠

ومما يلاحظ أيضا نظرته الى الاسعار فيعرف مثلا سعر التفاح بمدينة ما ثم يقارنه بغيره ٠

كما أنه اهتم اهتماما كبيرا بالتاريخ للمدن التى زارها وحكى عنها حكايات أقرب ماتكون الى الصحة العلمية ٠

ولم ينس فى غمرة كل ذلك الملابس التى يضعها الناس عبر الرحلة فوق أجسادهم فتحدث عن نوعها وألوانها وتاريخها ٠

كما التفت نفس الالتفاتة نحو الطعام عن فتحدث عن مأكولات الناس ومشروباتهم طبقا لما تناول لديهم وما رأى عندهم بل ولا حظ أيضامأكولات المناسبات الخاصة التى يبدعون فيها شيئا معينا ٠

هذا هو ما يعطينا اياه الكتاب الفريد « تحفة النظـار فى غرائب الأمصار وعجائب الاسفار » عن أسلوب الرحالة ابن بطوطة فى تصوير المجتمع الاسلامى العريض الذى عبره من أقصى الغرب الى أقصى الشرق وصعد فيه للشمال كما نزل الى الجنوب ، والذى ظل فيه راكبا مسافرا مرتحلا ربع قرن من الزمان مصورا ــ كما قلت ــ بعينين نفاذتين واسعتى الأفق كل الخلجات واللمحات والامارات على كل طريق بل وفى كل مدينة وحتى فى كل منزل ٠

حكايات ابن بطوطه

أورد الرحالة ابن بطوطة فى كتابه الفريد « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، كما ذكرنا آنفا ، ما يربو على الخمسين حكاية نحب هنا أن نتأملها بعين ترنو لمعرفة الحقيقة وترغب فى أستخلاصها واستشفافها من بين زيف المبالغة حينا واللامعقولية أحيانا لتضعها الى جوار الاحصاءات المجردة والوقائع المحددة لتكمل الصورة ولنضع اللمسة الأخيرة النابضة لمعرفة الأحوال الاجتماعية التى غطت وغلفت سطح هذه البلدان التى زارها ابن بطوطة والتى استمع فيها الى هذه الحكايات التى تواترت فيها وعاشت على شفاه الناس .

ونحن حينما نتعرض لها فى هذا الباب نعايش من جديد المجتمعات الاسلامية فى لون من ألوان الحياة التى تنبض فى كل مجتمع وتعيش بين كل مجموعة من الناس ألا وهو باب الحكاية :

والحكاية الاولى من مصر وهى عن الملك الناصر وتصف مجلسه يومى الاثنين والخميس للنظر فى المظالم وســـماع قصص المتشكيين .. يقعد القضاة الاربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها .

ويقول ابن بطوطة « وقد ســـلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين « أيده الله » فى ذلك مسلكا لم يسبق اليه ولا مزيد من العدل والتدافع عليه ، وهو سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يديه المستقيمة وقد أبي الله أن يحضرها أحد سواه أدام الله أيامه » .

ويصف المجلس « وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة فىالجلوس قاضى الشافعية ثم قاضى الحنفية ثم قاضى المالكية ثم قاضى الحنبلية » ويستطرد ذاكرا أنه لما توفى شمس الدين الحريرى وولى مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفى أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكى فوقه وذكروا أن العادة جرت بذلك قديما

اذ كان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يلى قاضى الشافعية تقى الدين ابن دقيق العيد فأمر الملك الناصر بذلك فلما علم به قاضى الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك فأنكر الناصر مغيبه وعلم ما قصده فأمر باحضاره فلما مثل بين يديه وأخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلى قاضى المالكية واستمر حاله على ذلك ، وتوضح الحكاية كيفية تحقيق العدالة ابان العصر المملوكى والترتيب الخاص بالأئمة الدينيين ٠

والحكاية الثانية من صعيد مصر وهى حكاية « خصيب » وتذكر أن أحد الخلفاء من بنى العباس رضى الله عنهم غضب على أهل مصر فآلى أن يولى عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا قصدا لاذلالهم والتنكيل بهم وكان خصيب أحقرهم اذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر وظن أنه يسير فيها سيرة سوء ويقصد أهلها بالايذاء حسبما هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز فلما استقر خصيب بمصر سار فى أهلها أحسن سيرة وشعر بالكرم والايثار فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل لهم العطاء ويعودون الى بغداد شاكرين لما أولاهم من فضل ٠

وحدث أن افتقد الخليفة بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه فأخبره أنه قصد خصيبا وذكر له ما أعطاه خصيب وكان عطاء جزيلا فغضب الخليفة وأمر بسمل عينى خصيب واخراجه من مصر الى بغداد وأن يطرح فى أسواقها وفيما أورد الأمر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخول منزله ، وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن فخبأها وخاطها فى ثوب له ليلا وسملت عيناه وطرح فى أسواق بغداد فمر به بعض الشعراء فقال له ياخصيب انى كنت قصدتك من بغداد الى مصر مادحا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها واحب أن تسمعها .

فقال « كيف بسماعها وأنا على ما ترى ؟ » فقال « انما قصدى سماعك لها وأما العطاء فقد أعطيت الناس كثيرا وأجزلت جزاك الله خيرا « قال « فافعل » فأنشده .

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

فلما أتى على آخرها قال له « افتق هذه الخياطة » ففعل ذلك فقال له « خذ الياقوتة » فأبى فأقسم عليه أن يأخذها فأخذها وذهب

بها الى سوق الجوهريين فلما عرضها عليهم قالوا له ان هذه لا تصلح الا للخليفة فرفعوا أمرها الى الخليفة فأمر الخليفـــة باحضار الشـــاعر واستعلم عن شأن الياقوتة فأخبره بخبرها فتأسف على ما فعله بخصيب وأمر بمثوله بين يديه وأجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب فى أن يعطيه هذه المنيـــا ففعل ذلك الى أن توفى وأورثهـــا عقبه الى أن انقرضوا ٠

والحكاية الثالثة تأتى أيضـــا من صـــعيد مصر وتتحدث أيصا عن الملك الناصر فيحكى ابن بطوطة عن أهل مدينة منفلوط الذين يخبرون أن الملك الناصر رحمه الله أمر بعمل منبر عظيم محكـــم الصـــنعة بديع الانشاء برسم المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما ، فلما تم عمله أمر أن يصعد به فى النيل ليجاز الى بحر جدة ثم الى مكة شرفها الله فلما وصل المركب الذى احتمله الى منفلوط وحازى مسجدها الجامع وقف وامتنع من الجرى مع مساعدة الريح فعجب الناس من شأنه أشـد العجب وأقاموا أياما لا ينهض بهم المركب فكتبوا بخبره الى الملك الناصر رحمه الله فأمر أن يجعل ذلك بجامع مدينة منفلوط فتم ذلك . ويقول ابن بطوطة أنه قد عاينه ٠

وتعطى الحكاية الثانية تفسيرا لتسمية عاصـمة محافظة المنيـا الحالية « المنيا » بمنية ابن خصيب نتيجـــة لاقطاعه اياها من الخليفـة ٠ كما تتضمن الحكاية بعض المعانى كمثل اذلال أهل مصر بتوليـة خادم حمام الخليفة أميرا عليهم والنظرة القديمة القائلة : أن من لا ينحـــدرون من الدماء العريقـة سيئو الخلق سيئو التصرف أفسـدها خصيب بحسن معاملته للناس فى مصر وبحسن عطائه وكرمه للوافدين من بغداد كمـا نلمس أخيرا المعنى الذى تتضمنه الآية الكريمة « هل جزاء الاحســـان الا الاحسان » .

أما الحـكاية الرابعة فتلقى الضـوء على بعض ما يسمى بالمعجزات الدينية من رفض المركب المبحرة المسير والوقوف بجوار المسجد بمنفلوط حتى يأمر الخليفة بأن يكون له هذا المنبر وربما رفض العـــالم الحديث هذه الحكاية الا أن أحداثا مشابهة تقع حتى هذه اللحظة فى كل مكان بالارض مما لا تستطيع معه أن نجزم نهائيا بأن هـذه القصـــة مختلقة وان دلت على شدة ايمان ابن بطوطة وايمان الناس بامكانية وقوع هذه المعجزات حتى اننا نستطيع أن نذكر فى باب آخر الـكرامات والاعتقـادات التى ذكرها الرحالة ابن بطوطة فى كتابه الفريد ٠

ومن دمشق تأتى الحكاية التالية وهى تتحدث عن شخص يدعى أبا يعقوب يوسف الذى زاره ابن بطوطة فى زاويته التى يطعم فيها الصادر والوارد ، ويحكى أنه دخل مدينة دمشق فمرض بها مرضا شديدا وأقام مطروحا بالأسواق فلما برىء من مرضه خرج الى ظاهر دمشق ليلتمس بستانا يكون حارسا له فاستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين وأقام فى حراسته ستة أشهر فلما كان أوان الفاكهة أتى السلطان الى ذلك البستان وأمر وكيل البستان ابا يعقوب أن يأتى برمان يأكل منه السلطان فأتاه به فوجده حامضا فأمره أن يأتى بغيره ففعل ذلك فوجده أيضا حامضا فقال له الوكيل أتكون فى حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ولاتعرف الحلو من الحامض فقال « انما استأجرتنى على الحراسة لا على الأكل » فأتى الوكيل الى الملك فأعلمه بذلك فبعث اليه الملك وكان قد رأى فى المنام أنه يجتمع مع أبى يعقوب وتحصل له منه فائدة فتفرس أنه هو فقال له « أنت أبو يعقوب ؟ » فقال « نعم » فقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه ثم احتمله الى مجلسه فأضافه ضيافة من الحلال المكتسب بكد يمينه وأقام عنده أياما ثم خرج من دمشق فارا بنفسه من أوان البرد الشديد فأتى قرية من قراها وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل وصنع له مرقة وذبح دجاجة وأتاه بها وبخبز شعير فأكل من ذلك ودعا للرجل وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها ومن عوائدهم فى تلك البلاد أن البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز من أوانى النحاس وبه يتبايعون فقال أبو يعقوب للرجل « هل عندك شىء من النحاس ؟ » . قال نعم ، قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت ، قال : ائتنى به ، فأتاه به ، فقال له : استعر من جيرانك ما أمكنك منه ، ففعل وأحضر ذلك بين يديه ، فأوقد عليه النيران ، وأخرج صرة كان عنده فيها الأكسير ، فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهبا ، وتركه فى بيت مقفل وكتب كتابا الى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك ، وينبهه الى بناء مارستان للمرضى من الغرباء ، ويقف عليه الأوقاف ويبنى الزوايا بالطرق ، ويرضى أصحاب النحاس ، ويعطى صاحب البيت كفايته ، وقال له فى آخر الكتاب : وان كان ابراهيم بن أدهم قد خرج عن ملك خراسان ، فأنا قد خرجت عن ملك المغرب ، وعن هذه الصنعة والسلام ، وفر من حينه ، وذهب صاحب البيت بالكتاب الى الملك نور الدين فوصل الملك الى تلك القرية ، واحتمل الذهب بعد أن أرضى أصحاب النحاس ، وصاحب البيت وطلب أبا يعقوب ، فلم يجد له أثرا ولا وقع

له على خبر ، فعاد الى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه الذى ليس فى المعمورة مثله .

ومن مصر حكاية جديدة :

شكى الأرمن مرة الى الملك النـــاصر الأمير حســـام الدين وزوروا عليه أمورا لا تليق فأنفذ أمره لأمير الامراء بحلب أن يخنقه ، فلما توجه الأمير بلغ ذلك صديقا له من كبار الأمراء فدخل على الملك الناصر وقال : ياخوندان ، الأمير حسام الدين هو من خيـــار الأمراء ينصح للمســـلمين ويحفظ الطريق وهو من الشجعان والأرمن يريدون الفساد فى بلاد المسلمين فيمنعهم ويقهرهم وانما أرادوا اضعاف شوكة المسلمين بقتله ، ولم يزل به حتى انفذ أمرا ثانيا بسراحه والخلع عليه ورده لموضـــعه ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالأغوش وكان لا يبعث الا فى مهم ، وأمره بالاسراع والجد فى السير ، فسار من مصر الى حلب فى خمس ، وهى مســـيرة شهر ، فوجد أمير حلب قد احضر حسام الدينوأخرجه الى الموضع الذى يخنق به الناس فخلصه الله تعالى ، وعاد الى موضعه .

وهذه حكاية أخرى :

كان قراسنقور من كبار الأمراء الذين حضروا قتل الملك الأشرف أخى الملك الناصر وشارك فيه ولما تمهد الملك للملك الناصر وقر قراره واشتدت أواخى سلطانه ، جعل يتتبع قتلة أخيه فيقتلهم واحدا واحدا، اظهارا للأخذ بثأر أخيه وخوفا أن يتجاسروا عليه بمـــا تجاسروا به على أخيه ، وكان قراسنقور أمير الأمراء بحلب فكتب الملك الناصر الى جميع الأمراء أن ينفروا بعساكرهم وجعل لهم ميعادا يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم عليها حتى يقبضوا عليـــه ، فلمـــا فعـــلوا ذلك خـــاف قراسنقور على نفسه وكان له ثمانمائة مملوك ، فركب فيهم وخرج على العساكر صباحا فاخترقهم وأعجزهم ســـبقا ، وكانوا فى عشرين ألفا ، وقصد منزل أمير العرب مهنا بن عيسى وهو على مسيرة يومين من حلب ، وكان مهنا فى قنص له فقصد بيته ونزل عن فرسه وألقى العمامة فى عنق نفسه ونادى « الجوار ياأمير العرب » وكانت هناك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه فقالت له « لقد أجرناك وأجرنا من معك » فقال « أنا أطلب أولادى ومالى » فقالت « لك ما تحب فانزل فى جوارنا » . ففعل ذلك وأتى مهنا فأحسن منزله وحكمه فى ماله فقال انما أحب أهلى ومالى الذى تركته بحلب . فدعا مهنا باخوته وبنى عمه فشـاورهم فى أمره فمنهم من أجابه الى ما أراد ومنهم من قال له كيف نحـــارب

الملك الناصر ونحن فى بلاده بالشام .. ؟ فقال لهم مهنا « أما أنا فأفعل نهذا الرجل ما يريد وأذهب معه الى سلطان العراق » .. وفى أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراسنقور سيروا على البريد الى مصر فقال مهنا لقراسنقور « أما أولادك فلا حيلة فيهم وأما مالك فنجتهد فى خلاصه » فركب فيمن أطاعه من أهله واستنفر من العرب نحو خمس وعشرين ألفا وقصدوا حلب فأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقى من أهله ولم يتعدوا الى سوى ذلك وقصدوا ملك العراق فأكرم نزلهم وأعطى مهنا عراق العرب وأعطى قراسنقور مدينة براغه من عراق العجم وتسمى دمشق الصغيرة ، وأقام عنده مدة ودعى مهنا الى الملك الناصر بعد مواثيق وعهود وعاد وبقى قراسنقور على حاله ، وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية المرة بعد المرة فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه ومنهم من يرمى نفسه عليه وهو راكب فيضربه وقتل بسببه من الفداوية جماعة ، وكان لا يفارق الدرع أبدا ولا ينام الا فى بيت العدد والحديد ، فلما مات السلطان محمد وولى ابنه أبو سعيد وقع ما سنذكره منأ مر الجدبان كبير أمرائه وفرار ولده الدمرداش الى الملك الناصر .

ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين أبى سعيد واتفق على أن يبعث أبو سعيد الى الملك الناصر برأس قراسنقور ويبعث اليه الملك الناصر برأس الدمرداش .. فبعث الملك الناصر برأس الدمرداش الى أبو سعيد فلما وصله أمر بحمل رأس قراسنقور اليه فلما عرف قراسنقور بذلك أخذ خاتما كان له مجوفا فى داخله سم ناقع فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه فعرف أبو سعيد الملك الناصر بذلك ولم يبعث اليه برأسه .

ولأدهم حكاية عند ابن بطوطة .. وبالتأكيد هو أدهم آخر غير الشرقاوى صاحب الموال الشهير . وعن أدهم يذكر الرحالة أنه مر ذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضأ من بعض الانهار التى تتخللها فاذا بتفاحة يحملها ماء النهر فقال هذه لا خطر لها فأكلها ثم وقع فى خاطره من ذلك وسواس فعزم على أن يستحل من صاحب البستان فقرع باب البستان فخرجت اليه جارية فقال لها ادعى لى صاحب المنزل فقالت : انه لامرأة فقال استأذنى لى عليها ففعلت فأخبر المرأة بخبر التفاحة فقالت له ان هذا البستان نصفه لى ونصفه للسلطان والسلطان يومئذ ببلخ وهى مسيرة عشرة من بخارى وأحلته المرأة من نصفها وذهب الى

بلخ فاعترض السلطان فى موكبه وأخبره الخبر واستحله فأمره أن يعود اليه فى الغد وكان للسلطان بنت بارعة الجمال قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت وحببت اليها العبادة وحب الصالحين وهى تحب أن تتزوج من ورع زاهد فى الدنيا ، فلما عاد السلطان الى منزله أخبر بنته بخبر ادهم وقال ما رأيت أورع من هذا يأتى من بخارى الى بلخ لأجل نصف تفاحة فرغبت فى تزوجه فلما أتاهم الغد قال له السلطان لا أملك الا أن تتزوج بنتى فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع ، وتزوج بنته فلما دخل عليها وجدها متزينة والبيت مزين بالفرش وسواه فعمد على ناحية من البيت وأقبل على صلاته حتى أصبح ولم يزل كذلك سبع ليال ، وكان السلطان ما أحله قبل ذلك فبعث اليه أن يحله فقال : لا أملك حتى يقع اجتماع بزوجتك ، فلما كان الليل واقعها ثم اغتسل وقام الى الصلاة فصاح صيحة واحدة وسجد فى مصلاه ووجد ميتا .

ويقول ابن بطوطة ، ذكر لى أن رجلا مجهولا ادعى الهداية وتكاثر الناس عليه فوعدهم بتملك البلاد وقسم بينهم بلاد الشام ، وكان يعين لهم البلاد ويأمرهم بالخروج اليها ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم استظهروا بها فانها كالأوامر لكم ، فاذا خرج أحدهم الى بلد أحضره أميرها فيقول له ان الامام المهدى أعطانى هذا البلد فيقول له أين الأمر ؟ فيخرج ورقة الزيتون فيضرب ويحبس ، وأمرهم المهدى بالتجهيز لقتال المسلمين وأن يبدءوا بمدينة جبلا وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الاسر ووعدهم أنها تصير فى أيديهم سيوفا عند القتال فقصدوا مدينة جبلا وأهلها فى صلاة الجمعة فدخلوا الدور وهتكوا الحريم وثار المسلمون من مسجدهم فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاءوا واتصل الخبر باللاذقية فأقبل أميرها بهادر عبد الله بعسكره وطير الحمام الى طرابلس فأتى أمير الأمراء بعساكره وأتبعوهم حتى قتلوا نحو ٢٠ ألفا وتحصن الباقون بالجبال وراسلوا ملك الأمراء والتزموا أن يعطوه دينارا عن كل رأس ان هو حاول ابقاءهم وكان الخبر قد طير به الحمام الى الملك الناصر وصدر جوابه أن يحمل عليهم السيف فراجعه ملك الأمراء وقال له انهم عمال المسلمين فى حراسة الأرض وانهم ان قتلوا ضعف المسلمون لذلك أمر بالابقاء عليهم .

ومن اللاذقية تأتى هذه الحكاية .. كان بها رجل يعرف بابن المؤيد هجاء لا يسلم أحد من لسانه ، متهم فى دينه مستخف يتكلم بالقبائح من الالحاد ، فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الأمراء فلم يقضها له ، فقصد

مصر وتقول عليه أمورا شنيعة وعاد الى اللاذقية فكتب طيلان الى القاضى جلال الدين أن يتحيل فى قتله بوجه شرعى ، فدعاه القاضى الى منزله وباحثه واستخرج كامن الحاده ، فتكلم بعظائم أيسرها يوجب القتل ، وكان القاضى قد أعد الشـــهود خلف الحجاب فكتبوا عقدا بمـــا قاله وثبت عند القاضى وسجن وأعلم ملك الأمراء بقضيته ثم أخرج من السجن وشنق على بابه ٠

ومن جبل لبنان تأتى هذه الحكاية التى أخبرها لابن بطوطة بعض الصالحين ــ قال : « كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد فأوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها فقال بعض الحاضرين يصلح لهذه النار ما يشوى فيها فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الاعين ولا يعبأ به : انى كنت عند صلاة العصر بمتعبد ابراهيم بن أدهم فرأيت بمقربة منه حمارا وحشيا قد أحدق الثلج به من كل جانب وأظنه لا يقدر على الحراك فلو ذهبتم اليه لقدرتم عليه وشويتم لحمه فى هذه النار » قال : فقمنا اليه فى خمســة رجال فألفيناه كما وصف لنا فأتينا به وذبحناه وشوينا لحمه فى تلك النار وطلبنـــا الفقير الذى نبـــه عليه فلم نجـــده ولا وقعنـــا له على أثر فطال عجبنا منـــه ٠

ومن دمشق حكاية عن الفقيه الكبير ابن تيمية واسمه كبير الشام ويتكلم فى الفنون الا أن فى عقله شيئا ، وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ويعظهم على المنبر ، وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء ورفعوه الى الملك الناصر فأمر باشخاصه الى القاهرة وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر وتكلم شرف الدين الزواوى المالكى وقال ان هذا الرجل قال كذا وكذا وعدد ما أنكر على ابن تيمية وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدى قاضى القضاة ، وقال قاضى القضاة لابن تيمية ماتقول ؟ قال : لا اله الاالله ــ فأعاد عليه فأجاب بمثل قوله فأمر الملك الناصر بسجنه أعواما وصنف فى السجن كتابا فى تفسير القرآن سماه بالبحر المحيط فى نحو أربعين مجلدا ، ثم ان أمه تعرضت للملك الناصر وشكت اليه فأمر باطلاق سراحه الى أن وقع منه مثل ذلك ثانية ، ويقول ابن بطوطة وكنت اذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم فكان من جملة كلامه أن قال : « ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولى هذا ونزل درجة من درج المنبر ، فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء وأنكر ما تكلم به فقامت العامة الى هذا الفقيه وضربوه بالأيدى والنعال ضربا كثيرا حتى سقطت عمامته وظهر على رأسه شاشية حرير فأنكروا عليه

لباسها واحتملوه الى دار عز الدين بن مسلم قاضى الحنابلة فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ماكان من تعزيره ورفعوا الأمر الى ملك الأمراء سيف الدين تنكيز وكان من خيار الأمراء وصلحائهم فكتب الى الملك الناصر بذلك وكتب عقدا شرعيا على ابن تيمية بأمور منكرة منها أن المطلق بثلاث فى كلمة واحدة لا تلزمه الا طلقة واحدة ، ومنها المسافر الذى ينوى بسفره زيارة القبر الشريف ـ زاده الله طيبا ـ ولا بقصد الصلاة كان عليه وزر ذلك وبعث العقد الى الملك الناصر فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة فسجن بها حتى مات فى السجن ٠

وعن شخصية أخرى من شخصيات دمشق يذكر الحكاية التالية وهى عن شخصية الشيخ الصالح ظهير الدين العجمى وكان سيف الدين تنكيز يتتلمذ له ويعظمه فحضر يوما بدار العدل عند ملك الأمراء وحضر القضاة الأربعة فحكى قاضى القضاة جمال الدين حكاية فقال له ظهير الدين كذبت فأنف القاضى من ذلك وامتعض وقال للأمير كيف يكذبنى بحضرتك ٠٠ ؟ فقال له الأمير أحكم عليه ٠٠ وظن أنه لايرضى بذلك فلا يقبل أن يناله سوء ٠ فأحضره القاضى بالمدرسة العادلية وضربه مائتى سوط وطيف به على حمار فى مدينة دمشق ومناد ينادى عليه فمتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة وهكذا العادة عندهم فبلغ ذلك ملك الأمراء فأنكره أشد الانكار وأحضر القضاة والفقهاء فأجمعوا على خطأ حكمه بغير مذهبه فان التعزير عند الشافعى لا يبلغ به الحد وقال قاضى قضاة المالكية شرف الدين قد حكمت بتفقيه فكتب الى الملك الناصر فعزله ٠

وعن سبب تسمية الصالح رسلان بالباز الأشهب يورد ابن بطوطة الحكاية الآتية : « يحكى أن الشيخ الولى أحمد الرفاعى رضى الله عنه كان مسكنه بأم عبيدة بمقربة من مدينة واسط وكان بينه وبين ولى الله تعالى ابن مدين شعيب بن الحسين مؤاخاة ومراسلة ، ويقال ان كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحا ومساء فيرد عليه الآخر ، وكانت للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته ، فلما كان فى احدى السنين جزها على عادته وترك عذقا منها وقال هذا برسم أخى شعيب ، فحج الشيخ أبومدين تلك السنة واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة ومع الشيخ أحمد خديمه رسلان فتفاوض الكلام وحكى الشيخ حكاية العذق فقال له رسلان عن أمرك يا سيدى آتيه به فأذن له فذهب من حينه وأتاه به ووضعه بين أيديهما فأخبر أهل الزاوية أنهم عشية يوم عرفة رأوا بازا أشهب قد انقض على النخلة فقطع العذق وذهب به فى الهواء » ٠

مرت بدمشق أيام سميت بأيام الطاعون الأعظم شهدها ابن بطوطة وكان ذلك فيأواخر شهر ربيع الثانى سنة ٧٤٩هـ تسع وأربعينوسبعمائة وعجب لتعظيم أهلدمشق للمسجد، وذلك ان ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمر مناديا ينادى بدمشق أن يصوم النـاس ثلاثة أيام ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهارا وأكثر الناس بها يأكلون الطعام الذى يصنع بالسوق ، فصام الناس ثلاثة أيام متتالية كان آخرها يوم خميس ٠٠ ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضـاة والفقهاء وسـائر الطبقات على اختلافها فى الجامع حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة به ما بين مصل وذاكر وداع ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعـا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة، وخرج جميع أهل البلد ذكورا واناثا صغارا وكبارا وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ، وبعض النسـاء والولدان جميعهم باكون متضرعون متوسـلون الى الله بكتبه وأنبيائه وقصدوا المسـجد وأقاموا فيه فى تضرعهم ودعائهم الى قرب الزوال وعادوا الى البلد وصلوا الجمعة ، وخفف الله تعـالى عنهم فانتهى عدد الموتى الى ألفـين فى اليوم الواحد ، وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر الى أربعة وعشرين ألفا فى يوم واحد ٠

وحكاية أخرى من دمشق ـ يقول ابن بطوطة « مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت بها مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصينى وهم يسمونها الصحن فتـكسرت واجتمع عليه الناس فقـال له بعضهم أجمع شقفها وأحملها معك لصـاحب أوقاف الاوانى فجمعهـا وذهب الرجل معه اليـه فأراه اياها فدفـع له ما اشـترى به مثل ذلك الصحن » ٠

ومن جبل ثور تأتى هذه الحكاية لصاحبين من أصحاب ابن بطوطة أحدهمـا الفقيه المـكرم أبو محمد عبـد الله بن فرحان الافريقى التوزى والآخر أبو العباس أحمد الاندلسى ، بأنهما قصدا الغار فى حين مجاورتهما لمكة شرفها الله تعالى فى سنة ٧٢٨ هـ ثمان وعشرين وسبعمائة هجرية، وذهبا منفردين لم يستصحبا دليلا عارفا فتاها وضلا طريق الغار وسلكا طريقا سواها منقطعة ، وذلك فى أوائل اشتداد الحر وحمو القيظ فلمـا نفد ما كان عندهما من الماء ولم يصلا الى الغـار أخذا فى الرجوع الى مكة فوجدا طريقا فاتبعاه فكان يفضى الى جبل آخر واشتد بهما الحر وأجهدهما

العطش وعانيا الهـلاك وعجز الفقيه أبو محمد بن فرحان عن المشى جملة وألقى بنفسه الى الأرض ونجا الأندلسى بنفسه وكان فيه فضل قوة ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق الى أحياء فدخل مكة وأعلمنى بما جرى للتوزى وانقطاعه بالجبل وكان ذلك آخر النهار . وكان لعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن وهو من سكان وادى نخلة وكان اذ ذاك بمكة فأعلمته بمـا جرى لابن عمـه وقصدت الشيخ الصالح الامام أبا عبد الله محمد بن عبد الرحيم المعروف بخليل امام المالكية ـ نفع الله به ـ فأعلمته بخبره فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب فى طلبه، وكان من أمر عبـد الله التوزى أنه لمـا فارقه رفيقه لجـأ الى حجر كبير فاستظل بظله وأقام على هذه الحالة من الجهد والعطش ، والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته ، فلما انصرم النهار وأتى الليل وجد فى نفسه فضل قوة وأنعشه برد الليل فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل الى بطن الوادى وحجبت الجبال عنه الشمس فلم يزل ماشيا الى أن بدت له دابة فقصدها فوجد خيمة للعرب فلما رآها وقع الى الأرض ولم يستطع النهوض فرأته صاحبة الخيمة وكان زوجها قد ذهب الى ورد الماء فسقته ما كان عندها من المـاء فلم يرد وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرد فأركبه حمارا له وقدم به مكة فوصلها عنـد صلاة العصر من اليوم الثانى متغيرا كأنه قام من قبر .

وفى مكة رأى ابن بطوطة أيام مجاورته لهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم وهو قاعد بمجلس التـدريس من المدرسة المظفرية بجانب الشباكة التى تشاهد منها الـكعبة الشريفـة والناس يبايعونه فكان يرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل وقد قعد القرفصاء بين يدى رسـول الله وقال أبايعك على كذا وكذا وعدد أشـياء منها « ولا أرد من بيتى مسكينا خائبا » وكان ذلك آخر كلامه فكان ابن بطوطة يعجب من قوله ويقول فى نفسـه كيف يقول هذا ويقدر عليـه مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالعة والعراق والعجم ومصر والشام، ويقول وكنت أراه حين ذلك لابسا جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالقفطان كان يلبسها فى بعض الأوقات ، فلمـا صليت الصبح غدوت عليه وأعلمتـه برؤياى فسر بها وبكى وقال لى : « تلك الجبة أهداها بعض الصـالحين لجدى فأنا ألبسها تبركا » . وما رأيته بعد ذلك يرد سائلا خائبا وكان يأمر خدامـه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به الى ابن بطوطة بعد صلاة العصر من كل يوم .

ومن مكة تأتى هـذه الحكاية ٠٠ عن تقى الدين المصرى الذى كان محتبسا بمـكة وكان له دخول فيما يعنيـه وفيما لا يعنيـه فاتفق بعض السنيين أن أتى أمير الحجاج بصبى من ذوى الدعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج فأمر بقطع يده فقال له تقى الدين اذا نقطعها بحضرتك غـلب أهل مكة خدامك عليـه فاستنقذوه منهـم وخلصـوه فأمر بقطع يده فى حضرته فقطعت وحقدها الصبى لتقى الدين وظل يتربص به الدوائر ولا قدرة له عليـه لأن له حسبا من الأميرين رميثـة وعطفية والحسب عندهم أن يعطى أحدهم هدية من عمـامة أو شـاشيه بمحضر من النـاس تكون جدارا لمن أعطيت له ولا تزول حرمتهـا حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة فأقام تقى الدين بمكة أعواما ثم عزم على الرحلة وودع الأميرين وطاف طواف الوداع وخرج من باب الصفا فلقيـه صاحبه الأقطع وتشـكى له ضعف حاله وطلـب منـه ما يستعين به على حاجتـه فانتهره تقى الدين وزجره فاستل خنجرا له يعرف عندهم بالجنبية وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه ٠

ومن رباط ربيع بمكة تأتى هذه الحكاية : أتى يوما غلمان الأمير أبى نمى صاحب مكة الى هذا الرباط ودخلوا بخيل الأمير وسـقوها من تلك البئر فلما عادوا بالخيـل الى مرابطهـا أصابتها الأوجاع وضربت الارض بأرجلها واتصل الخبر بالأمير أبى نمى فأتى باب الرباط بنفسـه واعتذر الى المساكين الساكنين به واستصحب واحدا منهم فمسح على بطون الدواب بيده فأراقت ما كان بأجوافهـا من ذلك الماء وبرئت ممـا أصابهـا ولم يتعرضوا بعدها بالرباط الا بالخير ٠

وحكاية أخرى من مكة عن الشيخ سيد الهندى أحد علمائها وشيخ رباط كلال الذى كان قد قصد ملك الهنـد محمد شاه فأعطاه مالا عظيما قدم به مكة فسجنه الأمير عطيفة وطالبه بأداء المال فامتنع فعذبه وعصر رجليه فأعطى ٢٥ ألف درهم وعاد الى بلاد الهند ونزل بدار الأمير سيف الدين هبة الله بن عيسى بن مهنا أمير عرب الشام وكان غدا ساكنا ببلاد الهند متزوجا بأخت ملـكها فأعطى ملك الهند للشيخ سـعيد جملة مال وتوجه صاحبه حاج يعرف بوشيلى من ناس الأمير غدا وجهة الأمير ليأتيه ببعض ناسه ووجد معـه أموالا وتحفا منهـا الخلع التى خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه بأخرى وهى من الحرير الأزرق مزركشة بالذهب ومرصعة بالجواهر بحيث لا يظهر لونها غلبة الجوهر عليها وبعث معه ٥٠ ألف درهم ليشترى له الخيل العتـاق فسافر الشيخ سعيد صحبة وشيلى واشتريا

سلعا بما عندهما من الأموال فلما وصلا جزيرة سقطرة «جزيرة الصيدر» خرج عليهما لصوص الهند فى مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالا شديدا مات فيه من الفريقين جملة وكان وشيلى راميا فقتل منهم جماعة ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وشيلى طعنة مات فيها وأخذوا ماكان عندهم وتركوا لهم مركبهم فذهبوا الى عدن التى دفن بها وشيلى وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون أحدا الا فى حين القتال ولا يغرقون انما يأخذون ماله ويتركونه يذهب حيث يشاء • وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد اظهار الدعوة العباسية ببلده كمثل ما فعله ملوك الهند ممن تقدموه مثل السلطان شمس الدين للمش وولده ناصر الدين ومثل السلطان جلال الدين فيروز شاه والسلطان غياث الدين ملمن وكانت الخدع تأتى اليهم من بغداد فلما توفى وشيلى قصد الشيخ سعيد الى الخليفة العباسى ابن الخليفة أبى الربيع سليمان العباسى بمصر وأعلمه بالامر فكتب له كتابا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند • فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب الى اليمن واشترى بها ثلاث خلع سود وركب البحر الى الهند فلما وصل كومبايت ــ على مسيرة أربعين يوما من دلهى ــ كتب صاحب الجثة الى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وأن معه أمر الخليفة وكتابه فورد الأمر الى الحضرة مكرما فلما قرب من الحضرة بعث الأمراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ثم خرج هو بنفسه لتلقيه وتلقاه وعانقه ودفع له الأمر فقبله ووضعه على رأسه ودفع له الصندوق الذى فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ولبس احدى الخلع وكسى بالأخرى الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز بن الخليفة المنتصر العباسى الذى كان مقيما عنده وكسى الخلعة الثالثة الأمير قبولن الملقب بالملك الكبير وهو الذى يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب وأمر السلطان بالخلعة على الشيخ سعيد وأركبه على الفيل ودخل المدينة كذلك والسلطان أمامه على فرسه وعن يمينه وشماله الاميران اللذان كساهما الخلعتين العباسيتين والمدينة قد زينت بأنواع الزينة وصنع بها احدى عشرة قبة من الخشب كل قبة بها أربع طبقات فى كل طبقة طائفة من المغنيين رجالا ونساء والراقصات وكلهم مماليك السلطان والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها وفى وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حل بها الجلاب يشربه كل وارد وصادر لا يمنع منه أحد وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من ورق التمول والفل والنورة فيأكلها فتطيب نكهته ويزيد فى حمرة وجهه ولثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل

فرشت له الثياب الحرير بين يدى الفيل يمشى عليها الفيل من باب المدينه الى دار السلطان وانزل بدار تقرب من الملك اندى بعث له اموالا طائله كما أن جميع الأبواب المعلقة والمفروشة بالقباب والموضوعةبين يدى الفيل لا تعود الى السلطان بل يأخذ أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب وخدام الاحواض وغيرهم وهكذا فعلهم عندما قدم السلطان من سفر • وأمر الملك بكتاب الخليفة أن يقرأ على المنبر بين الخطبتين فى كل يوم جمعة وأقام الشيخ سعيد شهرا ثم بعث مع الملك هدايا الى الخليفة فوصل كمبايت وأقام بها حتى يتسرب أسباب حركته فى الخبر وكان ملك الهند قد بعث أيضا من عنده رسولا الى الخليفه وهو الشيخ رجب البرقعى أحد شيوخ الصوفية وأهله من مدينة القرم من صحراء قبة جق وبعث معههدايا للخليفة منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار وكتب له يطلب منه أن يعقد له النيابة عن بلاده الهند والسند ويبعث لها سواء من يظهر له •• هكذا نص اليه كتابه اعتقادا منه من الخلافة وحسن نيته وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالأمير سيف الدين الكاشف فلما وصل رجب الى الخليفة أبى أن يقرأ ويقبل الهدية الا بمحضر الملك الصالح اسماعيل ابن الملك الناصر فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر فباعه واشترى بثمنه ـ وهو ثلاثمائة ألف درهم ـ أربعة أحجار وحضر بين يدى الملك الصالح ودفع له الكتابة وأخذ الاحجار ودفع سائرها لأمرائه واتفقوا على أنيكتب الملك الهندى بما يطلبهفوجهوا الشهود الى الخليفة وأشهد على نفسه أنه قدم نائبا عن بلاد الهند وما يليها وبعث الملك الصالح رسولا وهو شيخالشيوخ بمصر ركن الدين العجمى• ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية وركبوا أكبر فارس من الابل الى هرمز سلطانها يومئذ قطن الدين تمتهن بن طوران شاه فأكرم مثواهم وجهز نهم مركبا الى بلاد الهند فوصلوا مدينة كمبايت والشيخ سعيد بها وأميرها يومئذ مقبول التلكى أحد خواص ملك الهند فاجتمع الشيخ رجب بهذا الامير وقال ان الشيخ سعيد انما جاءكم بالتزويد واخلع التى ساقها انما اشتراها بعده فينبغى أن تثقفوه وتبعثوه لخوجة عالم وهو السلطان فقال له الأمير الشيخ سعيد معظم عند السلطان فما يفعل به هذا الا بأمره ولكنى أبعثه معكم ليرى فيه السلطان رأيه وكتب الامير بذلك كله الى السلطان وكتب به أيضا صاحب الأخبار فوقع فىنفس السلطان تغير وانقبض عن الشيخ رجبلكونه تكلم بذلك علىرءوس الاشهاد بعد ما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الاكرام ما صدر فمنع رجب من الدخول عليه وزاد فى اكرام الشيخ سعيد ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان

قام اليه وعانقه وأكرمه وكل من دخل اليه يقـدم له وبقى الشيخ سعيد المذكور بأرض الهند معظما مكرما وبما تركته سنة مائة وأربعين ٠

وحكاية أخـرى من مكة عن حسن المغربى المجنون ويقـول عنـه ابن بطوطة : انه كان كثير الطواف بالليل وكان يرى فى طوافه بالليل ففيرا يكثر الطواف ولا يراه بالنهار فلقيه ذلك الفقـير ليلة وسأله عن حاله وقال له يا حسن ان أمك تبكى عليك وهى مشتاقة الى رؤيتك وكانت من اماء الله الصـالحات أفتحب أن تراها ؟ قال له نعم ولكن لا قدرة لى على ذلك فقال له نجتمع ها هنا فى الليـلة المقبلة ان شـاء الله تعالى ، فلما كانت الليلة المقبلة وهى ليلة الجمعـة وجـده حيث واعده فكانا بالبيت ما شاء الله ثم خرج وهو فى اثره الايجاب المعـلى فأمره أن يسـير يمينه ويمسك بثوبه ففعل ذلك ثم قال بعد ساعة أتعرف بلدك ؟ قال نعم ها هو هذا ففتح عينيه فاذا به على دار أمه فدخل بلده ولم يعلمها بشىء مما جرى وأقام عندها نصف شهر ثم خرج الى الجبـانة فوجد الفقير صاحبه فقال له كيف أنت فقـال يا سيدى انى اشتقت الى رؤية الشـيخ نجم وكنت خرجت على عادتى وغيبتى هذه الأيام وأحب أن تردنى اليه فقال له نعم وواعداه الجبانة ليلا فلما وافاه بها أمره أن يفعل كفعله فى مكة من تغميض عينيه والامساك بذيله ففعل ذلك فاذا به فى مكة شرفها الله ٠ وأوصاه الا يحدث نجما بشىء مما جرى ولا يحدث به غيره أبدا فلما دخل على نجم الدين قال له أين كنت فانى أحسست غيبتك ؟ فأبى أن يخبره فعزم عليه فأخذه بالحكاية فقال له أرنى الرجل فأتى معه وأتى الرجل على عادته فلما مر بهما قال له يا سيدى هو هذا فسمع الرجل فضرب بيده على فمه وقال اسكت وكان أن تخرس لسانه وذهب عقله وبقى بالحرم مولعا يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة والناس يتبركون به ويكسونه واذا جاع خرج الى السوق التى بين الصفا والمروة فيقصـد حانوتا من الحوانيت فيأكل منها ما أحب لا يصده أحد ولا يمنعه بل يسر كل من أكل له شيئا وتظاهر له البركة النمـاء فى بيعه ومتى أتى الى السـوق تطاول أهلها بأعناقهم اليه كل منهم يحرص على أن يأكل من عنده لما جربوه من بركته وكذلك فعله مع السـقائين متى أحب أن يشرب ولم يزل دأبه كذلك الى سنة مائة وعشرين فحج فيها الأمير سيف الدين فانقطع خبره نفع الله تعالى به ٠

ويقول ابن بطوطة كنت قد مررت بموضع يقال له أفغانبور وقد نزلنا على ونهر يعرف بنهر السرد وذلك فى أداء الشكال ، والشكل عندهم

هو المطر وينزل فى أيام القيظ وكان السيل ينحدر فى هذا النهر من جبال خراجيل فكل من يشرب منه من انسان أو بهيم يموت لنزول المطر على الشاطىء المسمومة فأقمنا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد ، وصلى الى هناك جماعة من الفقراء فى أعناقهم أعناق الحديد وفى أيديهم ، وكبيرهم رجل أسود حالك اللون وهم من الطائفة المعروفة بالحيضريه ، فباتوا عندنا ليلة وطلب منى كبيرهم أن آتيه بالحطب ليوقدوه عند رأسهم فطلبت والى تلك الجهة وهو عندئذ المعروف بالحمار أن يأتى بالحطب فأحضر نحو عشرة أحمال أضرموا فيها النار بعد صلاة العشاء حتى صارت جمرا وأخذوا فى سماع ثم دخلوا فى تلك النار فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها وطلب منى كبيرهم قميصا وأعطيته قميصى فى النهاية من الرقة فلبسه وجعل يتمرغ به فى النار بأكمامه حتى طفئت تلك النار وخمدت وجاء الى بالقميص والنار لم تؤثر فيه شيئا البتة فطال عجبى منه ٠

وفى البصرة وفى مسجدها وفى السبع صوامع والتى احداها صومعه تتحرك بزعمهم عند ذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول ابن بطوطة : صعدت اليه من أعلى سطح المسجد ومعى بعض أهل البصرة فوجدت فى ركن من أركانها مقبض خشب مسمرا فيه كأنه مقبض مملسة الميناء فجعل الرجل الذى كان معى يده فى ذلك المقبض وقال « بحق رأس أمير المؤمنين على رضى الله عنه تحركى » وهز المقبض فتحركت الصومعة فجعلت أنا يدى فى المقبض وقلت له وأنا أقول بحق رأس أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحركى وهززت المقبض فتحركت الصومعة فعجبوا من ذلك ٠

وعن ملك ايذج تستر يحكى ابن بطوطة هذه الحكاية : قدم السلطان أتابك مرة على ملك العراق أبى سعيد فقال له بعض خواصه ان أتابك يدخل عليك وعليه الدرع وظن ثوب الشعر التى تحت ثيابه درعا فأمرهم باختبار ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقتهم فدخل عليه يوما فقام اليه الأمير الجوبان عظيم أمراء العراق والأمير سوتيه أمير ديار بكر والشيخ حسن وأمسكوا بثيابه كأنهم يمازحونه ويضاحكونه فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ورآه السلطان أبو سعيد وقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه وقال له سن أطلعن ومعناها بالتركية أنت أبى وعوضه عن هديته بأضعافها وكتب له اليرليغ وهو الظئر ألا يطالبه بهدية بعده لا هو ولا أولاده ٠

ومن غريب ما اتفق لابن بطوطة أنه دخل مرة فرأى القضاة والخطباء

والشرفاء قد استندوا الى حيطان المشورة وهو غاص بهم من جميع جهاته وهم بين باك ومتبـاك ومطرق وقد لبسـوا فوق ثيابهم ثيـابا من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنهـا الى أعلا ووجوهها مما يلى أجسادهم وعلى رأس كل واحد منهم قطع خرقة أو مئزر أسود وهكذا يكون فعلهم الى مائة وأربعين يوما وهى نهاية الحزن عندهم وبعدها يبعث السلطان الى كل من فعل ذلك كسوة كاملة فلما رأى ابن بطوطة المشور غاصا بالناس ، يقول نظرت يمينا وشمالا باحثا عن موضع لجلوسى فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الأرض بمقدار شبر وفى احدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد عليه ثوب صوف شبه اللبد يلبسنه بتلك البلاد ضعفاء النـاس أيام المطر والثلج وفى الاسفار فتقدمت الى حيث الرجل وانقطع عنى أصحابى لما راوا قدامى نحوه وعجوبا منى وأنا لا أعلم شيئا من حاله فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل فرد السـلام وارتفع عن الأرض كأنه يريد القيام وهم يسمون ذلك نصف القيـام وقعدت فى الركن المقـابل له ثم نظرت الى الناس وقد رمونى بأنظارهم جميعا فعجبت منهم ورأيت الفقهاء والمشايخ والأشراف مستندين الى الحـائط تحت السقيفة وأشار الى أحد القضاة ان أنظر الى جانبه فلم أفعل وحينئذ استشعرت انه السلطان فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشـايخ نور الدين الكرمانى وصـعد الى السقيفة وسلم على الرجـل فقام اليه وجلس فيمـا بينه وبينى وحينئذ علمت أن الرجل هو السلطان ثم جيء بالجمارات وهى بين أشجار الأترج والليمون والنارنج وقد ملئوا أغصانها بثمارها والأشجار بأيدى الرجال فكانت الجنازة تمشى فى بستان والمشاعل فى رماح طوال بين يديها وصلى عليها وذهبت والناس معها الى مدفن الملوك ٠

ومن بغداد يحكى ابن بطوطة أن ملك العراق السلطان محمد خدى منده قد صحبه فى حال كفره فقيه من الروافد الأمامية يسمى جمال‌الدين ابن مظهر فلما أسلم السلطان وأسلمت باسلامه التتر زاد فى تعظيم هذا الفقيه فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره وشرح له حال الصحابة وخلافه وقرر اليه أن أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله وأن على ابن عمه وصهره فهو وارث الخلافة ومثل له ذلك بما هو مألوف عنده من أن الملك الذى بيـده انمـا هو ارث عن أجداده وأقاربه مع حدثان عهـد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض وكتـب بذلك الى العراقيين وفارس وأذربيجـان وأصـفهان وكرمان وخراسان وبعث الرسل الى البلاد فكان أول بلاد وصل اليها هى بغداد وشيراز وأصفهان فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الازج منهم وهم

أهل السنة وأكثرهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل وقالوا لا سمعا ولا طاعة وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة فى السلاح وبه رسول السلطان فلما صعد الخطيب المنبر قاموا اليه وهم نحو ١٢ ألفا فى سلاحهم وهم حماة بغداد والمشار اليهم فيها فحلفوا له انه ان غير الخطبة المعتادة او زاد عليها أو أنقص منها فانهم قاتلوه وقاتلوا رسول الملك ومستسلمين بعد ذلك لما شاء الله وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة المعتادة وفعل أهل شيراز وأصفهان كفعل أهل بغداد فرجعت الرسل الى الملك فأخبروه بما جرى فى ذلك فأمر أن يؤتى بقضاة المدن الثلاث فكان أول من أوتى به منهم القاضى مجدى الدين قاضى شيراز والسلطان اذ ذاك فى موضع يعرف بقرى باغ وهو موضع وصيفه فلما وصل القاضى أمر أن يرمى به الى الكلاب التى عنده وهى كلاب ضخام فى أعناقها السلاسل معدة لأكل بنى آدم فاذا أوتى بمن يسلط عليه الكلاب جعل فى رحبة كبيرة مطلقا غير مقيد ثم بعثت تلك الكلاب عليها فيفر أمامها ولا مفر له فتدركه فتمزقه وتأكل لحمه فلما أرسلت الكلاب على القاضى مجد الدين وصلت اليه ، بصبصت اليه وحركت أذنابها بين يديه ولم تهجم عليه بشىء فبلغ ذلك السلطان فخرج من داره حافى القدمين فأكب على رجلى القاضى يقبلهما وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب وهى أعظم كرامات السلطان عندهم ولما خلع السلطان ثيابه على القاضى مجد الدين أخذ بيده وأدخله الى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به ورجع السلطان عن مذهب الرفض وكتب الى بلاده أن يقر الناس على مذهب آل السنة والجماعة وأجزل العطاء للقاضى وصرفه .

وعن ملك الهند تأتى هذه الحكاية قدم على ملك الهند رجل من فقهاء خراسان هرو الدار من سكان قرازم يسمى بالأمير عبد الله بعثته الخاتون ترابك زوج الأمير قطلو دابور صاحب خوارزج بهدية الى ملك الهند فقبلها وكافأ عنها بأضعافها وبعث ذلك اليه واختار رسولها المذكور الاقامة عنده فصيره فى ندمائه فلما كان ذات يوم قال له ادخل الى الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع أن تحمله من الذهب ، فذهب الى داره فأتى بثلاث عشرة خريطة وجعل فى كل خريطة قدر ما وسعته وربط كل خريطة بعضو من أعضائه وكان صاحب قوة ، وقام بها فلما خرج عن الخزانة وقع ولم يستطع النهوض فأمر السلطان بوزن ما خرج ، فكان حملته ثلاثة عشر مان بمن دهلى وأمره أن يأخذ جميع ذلك فأخذه وذهب به .

وحكاية أخرى قريبة من هذه الحكاية التى سلفت ، اشتكى مرة أمير نجت الملقب بشرف الملك الخراسانى بحضرة ملك الهند فأتاه الملك عائدا ولما دخل عليه أراد القيام فحلف له الملك ألا ينزل عن سريره ووضع السلطان متكئة يسمونهاالورى فقعد عليها ثم دعى بالذهب والميزان فجىء بذلك وأمر المريض أن يقعد فى احدى كفة الميزان فقال ياخوند عالم لو علمت أنك تفعل هذا للبست على ثيابا كثيرة فقال له البس الآن جميع ما عندك من الثياب فلبس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن وقعد فى كفة الميزان ووضع الذهب فى الكفة الأخرى حتى رجحه الذهب وقال خذ هذا فتصدق به على رأسك وخرج عنه ٠

وحكاية ثالثة :

وفد على ملك الهند الفقير عبد العزيز الأردويلى وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق وتفقه فيه فجعل مرتبه مائة دينار ذهبا فى اليوم الواحد وصرف ذلك خمسة وعشرين ذهبا وحضر مجلسه يوما فسأله السلطان عن حديث فسرد له أحاديث كثيرة فى ذلك المعنى فأعجبه حفظه وحلف له برأسه أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه ثم نزل الملك من مجلسه فقبل قدميه وأمر باحضار صينية ذهب وهى مثل الطيفور الصغير وأمر أن يلقى فيها ألف دينار من الذهب أخذها السلطان بيده فصبها عليه وقال هى لك مع الصينية ووفد عليه مرة رجل خراسانى يعرف بابن الشيخ عبد الرحمن الاسفرايينى وكان أبوه نزل بغداد فأعطاه ٥٠ ألف دينار دراهم وخيلا وعبيدا وخلقا ٠

مر ابن بطوطة يوما ببعض أسواق مدينة شيراز فرأى بها مسجدا متقن البناء جميل الفرش وفيه مصاحف موضوعة فى خرائط حرير موضوعة فوق كرسى وفى الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتوح الى جهة السوق وهنالك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف يقرأ فيه فسلم عليه وجلس اليه فسأله عن مقدمه فأخبره وسأله ابن بطوطة عن شأن هذا المسجد فأخبره أنه هو الذى عمره ووقف عليه أوقافا كثيرة للفقراء وسواهم ثم رفع بساطا كان تحته والقبر مغطى عليه ألواح خشب وأراه صندوقا كان بازائه وقال فى هذا الصندوق كفنى وخيوطى ودراهم كنت استأجرت بها نفسى فى حفر بئر للرجل الصالح فدفع لى هذه الدراهم فتركتها لتكون نفقة مواراتي ومافضل منها يتصدق به ، فعجب ابن بطوطة من شأنه وأراد الانصراف فحلف عليه الرجل بالاقامة ٠

ولاول مرة يركب ابن بطوطة البحر ، أمر شريف منصـــور أحد غلمانه ان يأتيه بعديلة دقيق وهى نصف حمل وبطة وسمن يأخذهما من جلب أهل اليمن فأخذهما وأتى بهما اليه فأتى الى ابن بطوطة التجـار باكين وذكروا له أن فى جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم ورغبوا الى ابن بطوطة أن يكلم الشريف منصور فى ردها ، فكلمه ابن بطوطة فى ذلك وقال له ان للتجار فى جوف هذه العديلة شيئا فقال ان كان سكرا فلا أرده اليهم وان كان سوى ذلك فهو لهم ففتحوها فوجدوا الدراهم فردها عليهم ٠

وعن سلطان قلوى يحكى ابن بطوطة ، أنه قد حضره يوم جمعـة وقد خرج السلطان قاصدا الى داره فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين وقال له « يا أبا المواهب » فقال « لبيك يافقير » ما حاجتك قال « أعطنى هذه الثياب التى عليك » فقال له « نعم أعطيها » قال « الســـاعة » قال نعم « الساعة » فرجع المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب وقال للفقير « أدخل فخذها » فدخل الفقير وأخذها وربطهـا فى منديل ووضعها فوق رأسه وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ما ظهر من تواضـعه وكرمه وأخذ ابنه ولى عهده تلك الكســوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك فأمر للفقير أيضا بعشرة رءوس من الرقيق وحملين من العاج ٠

وفى أثناء قعود ابن بطوطة مع سلطان بركى أتى شيخ على رأســـه عمامة لها ذآبة فسلم عليه وقابله القاضى والفقيه وقعد أمام السلطان فوق الخطابة والقراء أسفل منه فقال ابن بطوطة للفقيه : من هذا الشيخ ٠٠؟ فضحك وسكت ثم أعدت السؤال فقال لى هذا يهودى طبيب وكلنا نحتاج اليه فلأجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له فأخذنى ما حدث فامتعض ابن بطوطة وقال لليهودى ياملعون يا ابن الملعـــون كيف تجلس فوق قراء القرآن وأنت يهودى وشتمه ورفع صوته فعجب السلطان وسأل عن معنى كلامه فأخبره الفقيه به وغضب اليهودى وخرج عن المجلس فى أســـوأ حال ولما انصرف ابن بطوطة والفقيه قال له الاخير « أحسنت بارك الله فيك ان أحدا سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك ولقد عرفته بنفسه » ٠

سأل سلطان فى مجلس ابن بطوطة فقال له هل رأيت قط حجرا أنزل من السماء ؟ فأجاب وما رأيت ذلك وماسمعت به فقال له انه قدنزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء ثم دعا رجالا وأمرهم أن يأتوا بالحجر فأتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة له بريق قدر ابن بطوطة زنتـــه

بقنطار وأمر السلطان باحضار القطاعين فحضر أربعة منهـــم فأمرهم أن يضربوه ، فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد فلم يؤثروا فيه شيئا فعجب ابن بطوطة من أمره ٠

ومن غريب ما حصل لابن بطوطة أنه بعث أحد الخـــدام ليشترى السمن فأتى أحدهما بالتبن والآخر بدون شيء وهو يضحك فسألناه عن سبب ضحكه فقال انا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن فأشار الينا بالوقوف فلما دفعنا له الدراهم أبطأ ساعة وأتى بالتبن فأخذناها منه ولكن قلنا له انا نريد السمن فقال هذا هو السمن ٠

يقول ابن بطوطة :

ذكر لى بعض أهل التاريخ أن أمير بلخ بنته امرأة كان زوجها أميرا ببلخ لبنى العباس يسمى داود من بنى فاشفق وان الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدثوه فبعث اليهم من يغرمهم غرما فادحا فلما بلغ الى بلخ أتى صبيانها فشكوا حالهم وما خطأهم من هذا الغرم فبعثت الى الامير الذى قدم برسم تغريمهم بثوب لها مرصع بالجواهر الثمينة أكثر من أمر بتغريمه فقالت له اذهب بهذا الثوب الى الخليفة فقد أعطيته نيابة عن أهل بلخ لضعف حالهم فذهب به الى الخليفة وألقى الثوب بين يديه وقص عليه القصة ، فخجل الخليفة وقال أتكون المرأة أكرم منا وأمره برفع المغرم من أهل بلخ والعودة اليها ليرد للمرأة ثوبها وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة فعاد الامير الى بلخ وأتى منزل المرأة وقص اليها مقال الخليفة ورد عليهـــا الثوب فقالت له ادفع بعد الخليفة على هذا الثوب قال نعم قالت له: لاألبسن ثوبا وقع عليه بصر غير ذى محرم منى وأمرت ببيع ما يحتاج اليه المسجد والزاوية والرباط ٠٠ وفضل من الثوب فذكر أنها أمرت بدفنه تحت بعض سوارى المسجد ليكون هناك متيسرا ان احتيج اليه ٠ خرج فأخبره تنكيز بهذه الحكاية فأمر بهدم سوارى المسجد فهدم منها نحو الثلث ولم يجد شيئا فترك الباقى على حاله ٠

حكاية الرافض : كان بخراسان رجلان أحدهما يدعى بمســـعود والآخر سمى بمحمد وكان لهما خمسة من الاصحاب وهم من الفتـــاك ويعرفون بالشطار فى العراق فاتفق سبعتهم على الفســـاد وقطع الطرق وسلب الاموال وشاع خبرهم وسكنوا جبلا منيعا بمقربة من مدينة بيهق وتسمى أيضا سيزار وكانوا يكمنون بالنهار ويخرجون بالليل ٠٠ والعشى فيضربون على القوى ويقطعون الطرق ويأخذون الاموال وانتشـــال مال أشباههم من أكلة الشر والفساد فكثر عددهم واشتدت شوكتهم وهابهم

الناس وخربوا مدينة بيهق فملكوها ثم ملكوا سواها من المدن واكتسبوا الاموال وجندوا الجنود وركبوا الخيل وتسمى مسعود بالسلطان وصار العبيد يفرون عن مواليهم اليه فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال وان ظهرت له الشجاعة أمره على جماعة فعظم جيشه واستفحل أمره وتمذهب جميعهم الرفض وطمحوا الى استئصال أهل السنة بخراسان وأن يجعلوها كلمة واحدة رافضة ، وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن وهو عنده من الصلحاء فوافقهم على ذلك فسموه بالخليفة وأمرهم بالعدل فأظهروه حتى كانت الدراهم فلا يلتقطها أحد حتى يأتى ربها فيأخذها وغلبوا على نيسابور وبعثوا اليه السلطان طاغيتور بالعساكر فهزموها ثم بعث اليها نائبه أرغون شاه فهزموه وأسروه ومنوا عليه ثم غزاهم طاغيتور بنفسه فى ٥٠ ألفا من التتر فهزموه وملكوا البلاد وتغلبوا على سرخس وطوس وهى من أعظم بلاد خراسان وجعلوا خليفتهم بمشهد على ابن موسى الرضى وتغلبوا على مدينة ليجام ونزلوا بخارجها ٠

ويحكى ابن بطوطة حكاية الشيخ شهاب الدين فيذكر أنه كان صاحب راحة يكثر الشراب وكان له من الندماء نحو ستين وكانت لهم عادة أن يجتمعوا فى منزل كل واحد منهم فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين وبقوا على ذلك مدة ثم ان النوبة وصلت يوما الى الشيخ شهاب الدين فعقد النوبة ليلة النوبة وعزم على اصلاح حاله مع ربه وقال فى نفسه ان قلت لأصحابى انى قد تبت قبل اجتماعهم عندى ظنوا ذلك منى عجزا عن مئونتهم فأحضر ما كان يحضر به قبل من مأكولات ومشروب وجعل الخمر فى الزقاق وحضر أصحابه فلما أرادوا الشراب فتحوا زقا فذاقه أحدهم فوجده حلوا ثم فتحوا ثانية فوجدوه كذلك ثم ثالثا فوجدوه كذلك فكلموا الشيخ فى ذلك فخرج لهم عن حقيقة أمرهم وصدقهم وعرفهم بتوبته وقال لهم والله ما هذا الا الشراب الذى كنتم تشربونه فيما تقدم فتابوا جميعا الى الله تعالى وبنوا زاوية وانقطعوا للعبادة بها ٠

ومن حكايات ابن بطوطة فى بلاد الهند ترد هذه الحكاية فى أول الجزء الثانى من كتابه الفريد ٠

« ادعى على السلطان رجل من كبار الجنود أنه قتل أخاه من غير موجب ودعاه الى القاضى فمضى على قدميه ولا سلاح معه الى مجلس القاضى فسلم وخدم وكان قد أمر القاضى بعد ذلك أنه اذا جاء الى مجلسه فلا يقدم له ولا يتحرك فصعد الى المجلس ووقف بين يدى القاضى فحكم عليه أن يرضى خصمه من دم أخيه فأرضاه » ٠

وتشبهها هذه الحكاية « ادعى على السلطان مرة رجل من المسلمين أنه له قبله حقا ماليا فتخاصما فى ذلك عند القاضى فتوجه الحكم على السلطان باعطاء المال فأعطاه » .

وتشبهها أيضا هذه الحكاية : ادعى على السلطان صبى من أبناء الملوك أنه ضربه من غير موجب ورفعه الى القاضى فتوجه الحكم عليه أن يرضيه بالمال ان قبل ذلك والا أمكنه من القصاص فشاهده ابن بطوطة يومئذ وقد عاد لمجلسه واستحضر الصبى وأعطاه عصا وقال له : « وحق رأسى تنتصر بنى كما ضربته فأخذ الصبى العصا وضربه بها احدى وعشرين ضربة » .

وفى هذه البلاد رأى ابن بطوطة ما يورده فى هذه الحكاية « أراد ابن أخت الوزير خواجى جيهان أن يفتك بخاله ويستولى على أمواله ويسير الى القائم ببلاد المعبر فنمى خبره الى خاله فقبض عليه وعلى جماعة من الأمراء وبعثهم الى السلطان وقتل الامراء ورد ابن أخته اليه فقتله الوزير ولما ورد ابن أخت الوزير اليه أمر به أن يقتل كما قتل أصحابه وكانت له جارية يحبها فاستحضرها وأطعمها الطنبول وعانقها مودعا ثم طرح المفيله وسلخ جلده وملىء تبنا فلما كان الليل خرجت الجارية من الدار فرمت بنفسها فى بئر هناك تقرب من الموضع الذى قتل فيه فوجدت من الغد ميتة فأخرجت ودفن لحمه معها فى قبر واحد وسمى ذلك قبر ركماشقا .

وفى آخر باب الحكايات يورد ابن بطوطة تحت ـ عنوان حكاية عجيبة الحكاية الآتية :

يقول « ولما كنت بصين كلان سمعت أن بها شيخا كبيرا قد أناف على المائتى سنة وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يباشر النساء مع قوته التامة وأنه ساكن فى غار بخارجها ويتعبد فيه فرأيته على باب الغار وهو نحيف شديد الحمرة عليه آثار العبادة ولا لحية له فسلمت عليه فأمسك بيدى وشمها وقال للترجمان هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر ثم قال لى لقد رأيت عجبا أتذكر يوم قدومك الجزيرة والرجل الذى كان جالسا بين الاصنام وأعطاك عشرة دنانير من الذهب فقلت نعم فقال أنا هو فتقبلت يده وفكر ساعة ثم دخل الغار وكأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به فلم يخرج الينا فتهجمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده ووجدنا

بعض أصحابه فقالوا لنا لو أقمتم عشر سنين لم تروه فان من عادته أنه اذا أطلع أحدا على سر من أسراره لا يراه بعد ولا تحسب أنه غاب عنك بل هو حاضر معك » ٠

هذه هى الحكايات التى أوردها الرحالة الكبير ابن بطـــوطة نوردها مثلما أتى بها دون تحقيق أو تعليق أو دراسة تاركين للقارىء النظر فيها بعين ترنو لمعرفة الحقيقة وترغب فىاستخلاصها لتكمل الصورة ولتضع اللمسة الاخيرة لمعرفة الاحوال الاجتماعية التى غطت سطح هذه العوالم التى زارها ابن بطوطة حيث استمع الى هذه الحكايات ٠

أشعار ابن بطوطه

حفلت صفحات كتاب ابن بطوطة بأبيات من الشعر تناثرت هنا وهناك وقد وردت فى حالات الاستشهاد والتمثيل والدعاء والمديح ·

ومن الطريف أن أبيات الشعر كانت تأتى بعد أن يقرر الى أى بحور الشعر تنتسب أالى الكامل أم الى الرجز أم الى البسيط الى آخر بحور الخليل ·

ومن أول أبيات الشعر التى وردت كانت الأبيات التى تدعو لمدينة صفاقس ·

سقيا لأرض صفاقس ذات المصانع والمعلى
تحمى القصير الى الخليج فقصدها السامى المعلى
بلد يكاد يقول حين نزوره أهلا وسهلا
صب يريد زيارة فاذا رأى الرقباء ولى

ويعارض ذلك الأديب أبو عبد الله محمد بن تميم فيقول :

صفاقس لا صفا عيش لساكنها ولا سقى أرضها غيث اذا انسكبا
ناهيك من بلدة من مل ساحتها عادى بها العاليين الروم والعربا
كم ضل فى البر مسلوب بضاعته وبات فى البحر يشكو الأسر والعطبا
قد عاين البحر من لوم لقاتلنا فكلما هم ان يدنو لها هربا

ويورد ماقاله ابن جزى فى ذكر قابس وذلك من بحر البسيط :

لهفى على طيب ليال خلت بجانب البطحاء فى قابس
كأن قلبى عند تذكارها جذوة نار بيد قابس

وفى خليج بلطيم يقول ابن جزى أيضا :

قم فاسقنى والخليج مضطرب والريح تثنى ذاريب التعب
كأنها والرياح تعطفها صب قنا سندسه العذب
والجو فى حلة ممسكة قد طرزتها البروق بالذهب

وكان الشعر يدخل فى الحكاية وهذا النوع من الحكايات لم ندخله فى باب الحكايات السالف · ومن هذه الحكايات ما حكى أبو عبد الله الرازى عن أبيه قاضى البرلس وكان رجلا صالحا خرج ليلة الى الصـــلاة فبينما أسبغ الوضوء وصلى ما شاء أن يصلى اذ سمع قائلا يقول :

لولا رجال لهم سرد يصومون وآخرون لهم ورد يقـــومون
لزلزلتأرضكممن تحتكم سحرا لأنكم قوم سوء لا تبالون

قال القاضى فتجوزت فى صلاتى وأدرت طرفى فمـــا رأيت أحدا ولا سمعت حسا فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى ·

ومن مصر يورد ابن بطوطة هذه الأبيات :

لعمرك ما مصر بمصر وانمـــا هى الجنة الدنيـــا لمن يتمصر
فاولادها الولدان والحور عينها وروضتها الفردوس والنيل كوثر

ومن شعر ناصر الدين بن ناهس :

شـاطىء مصر جنـــة ما مثلهـــا من بلد
لا ســـيما مذ جرفت بنيلهـــا المطـــرد
ولا الـــرياح فوقه صـــوابح من زرد
مسرورة ما مســـها داودها بمبـــرد
ســـائلة هواؤها يرعد عارى الجسد

وكانت قدم ابن بطوطة نشطة تأخذه الى كل مكان كما كانت عينه اللماحة ترى كل شىء · وفى قرافة مصر رأى قبر أم سلمى فاطمة بنت الحسين رضى الله عنها وهناك نقشا صنعه محمد بن أبى سهل النقـــاش بمصر كتب تحته :

أسكنت منفىالحشاءوالقلب مسكنه بالرغم منى بين الترب والحجر
يا قبر فاطمة بنت ابن فاطمة بنت الأئمة بنت الأنجم الزهر
يا قبر مافيك من دين ومن ورع ومن عفاف ومن صون ومن خفـر

ومن شـعر الاديب نور الدين أبى الحسن على بن موسى الغـرناطى أورد هذه الأبيات :

حمى الله من شطى حمـاة مناظرا وقفت عليها السمع والفكر والطرف
تغنى حمـام أو تميل خمـائل وتزهى مبان تمنع الواصف الوصف
يلومننى أن أعصى الصون والنهى وأطيع الـكأس واللهو والقصف
اذا كان ماء النهر عاص فكيف لا ... أحاكيه عصيانا وأشربهـا حرفا
وأشدو لدى تلك النواعير شدوها وأغلبها رقصا وأشـبهها عرفا
نئن وتذرى دمعهـا فكأنهـا تهيم بمرآها وتسـألها العطف

وفى نواعير حماه ذهب بعضهم مذهب التورية :

وناعورة رقت لعظـم خطيئتى ورق دعاينت قصدى من المنزل القاسى
بكت رحمة لى ثم باحت بشـجوها وحسبك أن الخشب تبكى على العاصى

وقال المحدثون :

يا سـادة سكنوا حماة وحقـكم ما حـدت عن تقوى وعن اخـلاص
والطرف بعدكم اذا ذكر اللقـا يجرى المدامع طائعـا كالعاصى

أما قلعة حلب فقد قال الخالدى شاعر سيف الدولة فيها :

وخرقاء قد قامت على من يرومهـا
بمرقبها العالى وجانبهـا الصعب
يجر عليها الجو جيب عمـامة
ويلبسها عقدا أبى نجمه الشهب
اذا ما سرى برق بدت من خـلاله
سما كما لاحت العذراء من حلل السحب

فكم من جنـود قد أماتت بغصة
وذى سطوات قد أبانت على عقب

وقال أيضا :

وقلعة عانق العنقـاء سافلهـا
وجاز منطقـة الجـوزاء عاليهـا
لا تعرف القطر اذ كان الغمام لهـا
أرضا توطأ قطريهـا مواشيها
اذا الغمـامة راحت عب سـاكنها
حياضها قبل أن تهمى عواليهـا
يعد من أنجم الاسك مرقبهـا
لو انه كان يجـرى فى مجاريهـا

ردت مكايد أكواب مـــــكايدها
ويسرت لدواهيهم دواهيهـــــا

وقال أيضا جمال الدين على بن أبى المنصور :

كادت لبـــون ســـموها وعلوها تستوقف الفلك المحيـط الدائرا
وردت قواطنهـا المجرة منهـــلا ورأت ســوابقها النجوم ظواهـرا
ويظل صرف النهر منهـا خائفـــا وجلا فمـا يمسى لديهـــا حائرا

أما حلب فقد أورد ابن بطوطة شعر أبى عبادة البحترى :

يا برق أسفر عن فريق مطـــالب حلب بأعـلى القصـر من بطـياس
عن منبت الورد المعصفر صـــبغة فى كل ضاحية ومجنا الآسى ...
أرض اذا استوحشـــتكم بتذكر حشـــــدت على فأكثرت آناس

كمال قال الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبرى :

ســـقى حلب المزن ففى حلب فكم وصـــلت طربا بالطـرب
وكم مستطاب من العيش لذ بها اذا بهـــا العيش لم يستطب
اذا نشر الزهـــر أعـلامه بهـــا فى مطارفه والعـــذب
غدا وحواشـــيه من فضـــة تروق وأوســـاطه من ذهب

وقال فيها أبو العلاء المعرى :

حلب للوارد جنـــــة عدن وهى للغادرين نار ســـعير
والعظيم العظيم يكبر فى عينه منها قدر الصغير الصـــغير
فقـــويق فى أنفس القوم بحر وحصاة فيه مكان شبير

أما أبو الفتيان ابن جابوس فقد قال :

يا صـــاحبى اذا أعياكما سقمى فللفيافى نسيم الريح من حلب
من البلاد التى كان الصبى ســكنا فيها وكان الهوى العذرى من أرب

كما قال أبو الفتوح كشاجم :

وما أمتعت جارهـــا بيده كما أمتعت حلب بجـــارها
بها قد تجمع ما تشـــتهى فزرها فطوبى لمن زارها

وقال فيها أبو الحسن بن موسى بن سعيد الغرناطى :

حادى العيش كم تنيخ المطـــايا سغب روحى من بعدهم فى سياق
حلب انهـــا مقر غرامى ومرابى وقمة الأشـــواق

كم بهـــا مرتع لطرفى وقلبى فيه ســـقى المنى بكأس دهاق
وتغنى طيـــورها لارتيـــاح وتثنى غصونهـــا للعنـاق
وعلو الشهباء حيث استـدارت أنجم الأفق حولهـــا كالنطاق

وأورد ابن بطوطة قصيدة المديح الطويلة التى قالها شاعر الشـام شهاب الدين فى القاضى ابن الزملكانى والتى منها :

أسفت لفقدك حلبة الفيحـــاء وتباشرت لقدومك الشـهباء
وعلى دمشق وقـد رحلت كآبة وعلى ربى حلب سنى وثنـاء
قد أشرقت دار سكنت فناءهـــا حتى غـــدت ولدورها لألاء ٠ ٠
يا سائرا ســـقى المكارم والعـلا من من يبجـــل عنده الكرمـــاء
هذا كمـال الدين لذ بجـــانبه تنعم فسمى الفضل والنعمـــاء
قاضى القضـــاة أجـــل من أيامه تغنى بها الايتـــام والفقـــراء
كشف المعنى فهمـــه وبيـــانه فكأنمـــا ذاك الذكاء ذكـــاء
يا حاكم الحكام قدرك ســـابق عن أن تسرك رتبـــة شمـــاء
لك فى العلوم فضائل مشـــهورة كالصبح شق له الظلام ضـــياء
ومناقب شهد العدو بفضـــلها والفضل ما شهدت به الاعـــداء

ومن بديع مقتطفات شاعر الشام فى التورية

علقتها غيـداء حالية العلا تجدى على عقل المحب وقلبـــه
فخلـــت بلؤلؤ ثغرهـــا فغدت مطوقة بمـــا بخلت به

وقد وصف ابن بطوطة قاضى قضاة الحنفية الامام المدرس ناصر الدين ابن العديم حسن الصورة والسيرة أصل مدينة حلب البيت الشهير ٠

تراه اذا ما جئتـــه متهلـــلا كأنك تعطيه الذى أنت ســـائله

ولقد لوى حسن دمشق أعناق الشعراء مثلما فعلت حلب فقيل ٠

ان تكن جنـــة الخلـــود بأرض فدمشـــق ولا تكون ســـواها
أو تكن فى السماء فهى عليهـــا قد ابدت هواءهـــا وهواها
بلد طيـــب ورب غفـــور فاغتنمها عشـــية وضـــحاها

وقال شرف الدين بن محسن

دمشق بنا شوق اليها مبرح وان لج واش أو ألح عـزول
بلاد بها الحصباء ورد وتربهـــا عبير وأنفاس الشمال شـــمول
تسلسل فيها ماؤها وهـــو مطلق وصح نسيم الروض وهو عليـــل

كما قال عرقلة الدمشقى :

الشام شـــام وجنـــة الدنيـــا كما انسان مقلتها الغضيضة حلق
من آشها لك جنـــة لا تنقضى ومن الشقيق جهنـــم لا نحرق

وقال أيضا :

أما دمشـــق فجنـــات معجلة للطالبين بها الولدان والحـــور
ما صح فيهـــا على أوتارها قمر الا يغنيـــه قمـــرى وشحرور
يا حبذا ودروع الماء تنسجهـــا أنامل الريح الا أنهـــا دور ..

أما أبو الوحش سبع بن حلف الاسدى فقد قال :

سقى دمشق الله غيثا مصحنـــا من مســـتهل ديمة دهاقهـــ
مدينة ليس يضـــاها حســـنها فى ســـائر الدنيـــا ولا آفاقهـــا
تود زوراء العراق لو انها منهـــا ولا تعـــرى الى عراقهـــا
فأرضها مثل السماء بهجـــة وزهرها كالزهر فى اشراقهـــ
نسيم روضـــها متى ما قد سرى فك أخا الصموم من وثاقهـــا
قد ربع الربيع فى ربوعهـــا وسيقة الدنيـــا الى أسواقهـــا
لاتســـأم العيون والانوف من رؤيتهـــا يوما ولا استنشاقها

ومما يناسب هذا القاضى الفاضل عبد الرحيم البيشانى فيها من قصيدة :

دعا برق هل لك فى احتمال تحية غربت فصارت مثل مائك سلسلا
باكر دمشق ممشق أقـــلام الحيا زهر الرياض مرصـــعا ومكللا
واجرر ذيولك والحواشى واختصص مغنى تأزر بالعـــلا وتسربـــلا
حيث الحيا الربعى محلول الحيـا والوابل الرائ مفرى الـــكلا

وقال أبو الحسن ابن موسى بن سعيد فى دمشق :

دمشق منزلنا حيث النعيم بـــدا مكملا وهـــو فى الآفاق مختصر
القصب راقصة والطـــير صادحة والزهر مرتفع والمـاء منحـــدر
وقد تجلت من اللذات أوجههـــا لكنها بظـــلال الدوح تستتر
وكل واد به موسى يفجـــره وكل روض على حـــافاته الخضر

وقال :

خيم بجلق بين الـــكأس والوتر فى جنة هى ملء الســـمع والبصر
ومتع الطرف فى مرأى محـــاسنه وروض الفكر بين الروض والنهر

وانظر الى ذهبيات الاصيل بهـا ... واسمع الى نغمات الطير فى السحر
وقـــل لمن لام فى لذاته بشرا ... دعنى فانك عندى من سوى البشر

وقال :

أما دمشـــق فجنـــة ... ينسى بها الـوطن الـغريب
أنظـر بعينيك هـل ترى ... الا محبـــا أو حبيب
فى موطـن غنى الحمـام به ... عـلى رقص القضـيب
رعـدت أزاهر روضـه ... تختـال فى مزج وطيـب

وقيل أيضا :

دمشـق فى أوصافهـا ... جنـة خلـد راضـية
أمـا تـرى أبوابهـا ... قد جعلـت ثمـانية

وفى مكة قال الحرث بن مضحاد الجرهمى :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفى ... أنيس ولم يسمر بمكة سـامر
بل نحن كنـا أهلهـا فأبادنا ... صروف الليـالى والجدود العواثر

وعن البصرة وبسبب هوائها غير الجيد قال بعض الشعراء :

مـن أترج غـادا بيننـا ... معبرا عن حال ذى عبـره
لما كسى الله ثيـاب الضنى ... أهل الهوى وسـاكن البصرة

وعن بلدة عبادان قيل :

من مبلغـا أندلسـا أننى ... حللت عبـادان أقصى الثرى
أوحـش ما أبصرت لـكننى ... قصدت فيها ذكرى فى الـورى
الخبـز فيهـا يتهـادونه ... وشربة المـاء بها تشترى

وعن نهر المعروف بابن الازرق بالقرب من مدينة تستر قال بعضهم:

أنظر لشادوان تستر عجـب ... من جمعـه ماء لرى بـلاده
كمليـك قوم جمعت أمـواله ... فغدى يفرقهـا على أجنـاده

وفى بغداد قال أبو تمام حين أطلع على ما آل اليه أمرها :

لقد أقام على بغداد ناعيهـا ... فيبكها لخراب الدهر باكيهـا
كانت على مائهـا والحرب موقـدة ... والنار تطفىء حسنا فى نواحيهـا
ترجى له عودة فى الدهر صالحة ... فألان أدمر منها اليأس راجيها
مثل العجوز التى أدلت شبيبتها ... بدا عليها جمال كان يخطيهـا

أما الامام القاضى أبو محمد بن عبد الوهاب بن على فقد قال :

طيب الهواء ببغداد يشـــــوقنى قربا اليها وان عاقت مقـــادير
وكيف أرحل عنهـــا اليـــوم اذجمعت طيب الهوائين ممدود ومقصور

وقال :

سلام على بغـــداد فى كل موطن وحق لها فى السلام مضـــاعف
والله ما فارقتها عن قلى لهـــا وانى بشطى وبانيها لعـــارف
ولكنها ضاقت على برحبهـــا ولم تكن الاقدار فيها تســـاعف
وكانت كخل كنت أهوى دنـــوه وأخلاقه تنـــأى به وتخـــالف

كما قال :

بغداد دار لاهل المال واســـعة وللصعاليك دار الضنك والضيق
ظللت أمشى مضاعا فى أزقتهـــا كأننى مصحف فى بيت زنديق

وفيها يقول القاضى أبو الحسن على :

آنت بالعراق بـــدرا منـــيرا فطوت غيبا وخاضـــت غديرا
واستطابت ربا نسائم بغـــداد فـــكادت لولا أن تطـــيرا
ذكرت من مســـارح الكرخ روضا لم يزل ناضرا وماء نمـــيرا

ومن شعر المرأة فى بغداد :

آها على بغـــدادها وعراقهـــا وظبائها والسحر فى أحداقهـــا
وجمالها عند الفرات بأوجـــه تبدو أهلتهـــا على أطواقهـــا
فتبخترت حلل النعيم كأنما حلق الهوى العذرى من أخلاقهـــا
نفس الفداء لها فأى محاســـن فى الدهر تشرق من سنا اشراقها

ومن شعر أبى نواس فى نصيبين :

طابت نصيبين لى يوما وطبت لهـــا ويا ليت حظى من الدنيـــا نصيبين

وقال بعض الشعراء :

لنصـــيبين قد عجبت وما فى دارها لى داع الى العـــــلات
يعدم الورد الاحمـــر فى دارها لســقام منى من الوجنـــات

وقال شاعر العراق صـــفى الدين بن عبد العزيز فى ماردين انتى تسمى أيضا بالشهباء .

فدع ربوع الحلة الفيحـــاء وازور بالقيس عـن الـــزوراء
ولا تقف بالمصـــلى الحـــدباء ان شهاب القلعـــة الشـــهباء

ولقد استغل ابن بطوطة موهبته الناظمة فى صنع أبيات مدح بها السلطان « سلطان فاس » مستهدفا الحصول على مال يرد به ديونه للتجار فقال :

اليك أمـير المؤمنين المبجـــلا أتينا نجد السير نحوك فى الفلا
فجئت محلا من علائك زائرا ومغناك كهـــف للزيارة آهـــلا
فلو كان فوق الشمس للمجد رتبة لكنت لأعـلاها اماما مؤهـــلا
فأنت الامام الماجد الاوحـــد الذى سجاياه حتما أن يقول فيفعـــلا
ولى حاجة من فيض جودك أرتجى قضاها وقصدى عند مجدك مسهلا
أذكركم قد كفانى حيـــاؤكم فان حياءكم ذكرا لما كان أجملا
فعجل لمن وافى محلـــك زائرا قضا ليلـة ان الغـريم تعجـلا

ومن شعر ابن بطوطة حين عودته الى أرض بلاده .

بلاد بها نيطـــت على تمائمـــه وأول أرض مس جلدى ترابهـــا

كما مدح الغرب

الغرب أحسن أرض ولى دليل عليه

البدر يرقب منه والشمس تسعى اليه

كما أورد ابن بطوطة قول أبى عبد الله محمد بن غالب الرصافى فى وصف جبل الطور المبارك قال :

لو جئت نار الهدىمن جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور

ومن شعر الشيخ أبى بكر محد بن أحمد فىغرناطة قال :

رعا الله من غرناطة متبـــوأ يسر حزينا أو يجـــير طريدا
تبرم منها صاحبى عنـــدما رأى مسارحها بالثلج عدنا جليـــدا
هى الثغر صـــان الله من أهلت به وما خـــير ثغـر لايكـون برودا

وفى غرناطة استمع ابن بطوطة الى الشاعر المجيد الذى وصفه بأنه غريب الشأن أبو جعفر أحمد بن رضوان ــ وأروده من شعره :

يا من اختار فـــؤادى منـــزلا بابه العـــين التى ترمقـــه
فتح الباب ســـــهادى بعدكم فابعثوا طيفـــكم يغلقـــه

وفى مراكش نسمع أبو عبد الله القوسى يقول :

لله مراكش الغراء من بلـــــــد	وحبذا أهلها السادات من سكن
ان حلها نازح الاوطـــان مغترب	أسلوه بالانس عن أهل وعن وطن
بين الحديث أو العيان لهـــــا	ينشى التحاسن بين العـين والاذن

هذه هى كل الاشعار التى حفلت بها صفحات كتـــاب ابن بطوطة ونظرا لسهولتها ووضوح أغراضها أوردناها كصورة فنيـــة نابعة من المجتمعات التى عاش فيها ابن بطوطة وساهم اجتماعيا وفنيا ٠

الإسلامية فى تصرفات ابن بطوطه

عبر صفحات كتاب ابن بطوطة فى جزئيه الأول والثانى التى تجاوز عددها الخمسمائة صفحة نلمح فى استهلالات ابن بطوطة للمواضيع ، وفى كلماته وجها دينيا واضحا تبين ملامحه وعبيرا اسلاميا يهل علينا من كل حرف يخطه ٠

فكتابه يبدأ بالكلمات « الحمد لله الذى ذلل الأرض لعباده ليسلكو، منها سبلا فجاجا » ويوضح هذا الاستهلال نزعة السفر المتأصلة فى نفس هذا الرحالة ، كما نلاحظ أيضا أن تأريخ ابن بطوطة لسيره كلها كان يدون بالتاريخ الهجرى العربى شأنه فى ذلك شأن كل الكتب التي خطت فى هذا العصر جميعا ، ولكن ذلك لا ينفى وجود دلالة اسلامية عند ابن بطوطة خاصة ٠

وربما وضحت الاسلامية عند ابن بطوطة حينما نعرف هدف خطوته الأولى ألا وهو ذلك الهدف الذى ذكره فى كلامه « معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلوات والسلام » ولم يورد ابن بطوطة قط اسم رسول الله من غير أن يدعو له بالصلاة والسلام ٠ بل كان ابن بطوطة يصف السلاطين والملوك والأمراء بصفات دينية سبق أن ذكرت « ناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين » « وجزاه الله أفضل الجزاء عن الاسلام والمسلمين » ٠

وحينما يشير بعض الاخوان على ابن بطوطة بمرافقة بعض الناس فى الطريق يقول « واستخرت الله عز وجل » ٠

ولما أصابته الحمى أشير عليه بالبقاء حتى يبرأ الا أنه أجاب « ان

قضى الله عز وجل بالموت فتكون وفاتى بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز خيرا من البقاء حتى أشفى مما أنا فيه » ٠

وكان ابن بطوطة يعتقد اعتقادا كبيرا فى الكرامات ، ولقد أورد من هذه الكرامات فى ثنايا كتابه ، كما أنه أثبت حتى أحلامه تلك التى رآها فى مناماته خاصة ما تعلق منها بالناحية الدينية ، ولقد رأينا أنه كان يقصد بعض الأولياء تبركا بالرؤية واللقاء وكان نزول ابن بطوطة خلال طرق أسفاره الطويلة ورحلاته بالزوايا والمساجد والمتعبدات أى فى كل تلك الأماكن التى يتعبد بها وهى بيوت الله ٠

كما ذكر ابن بطوطة فى كتابه وصفا تفصيليا لكل يوم من الأيام الدينية كيوم المحمل بالقاهرة وغرة صيام رمضان وأيام الأعياد وليالى الاسراء والمعراج والصوم ٠

ومن أهم ما يذكر هنا أن ابن بطوطة اشترك فى حرب الكفار فى غزوة وأصابته نشابة وانتهت بفوز المسلمين ، وكعادة المسلمين المؤمنين حينما تنتابهم ملمة يلجئون الى رحاب الله فلقد حدث لابن بطوطة أن هم السلطان بعقابه لأنه ذهب يوما لزيارة غار الشيخ شهاب الدين فأمر السلطان أربعة من عبيده بملازمته تمهيدا للتخلص منه ويقول ابن بطوطة ان الله الهمه تلاوة حسبنا الله ونعم الوكيل فقرأها حسب روايته فى اليوم الواحد ثلاثة وثلاثين ألف مرة وواصل الى خمسة آيام يختم فى كل يوم منها القرآن ٠

ولقد لازم الرحالة ابن بطوطة الشيخ الامام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع فريد الدهر ووحيد العصر كمال الدين عبد الله الغازى وانقطع الى خدمته بعدما ذهب ما عنده للفقراء والمساكين وكان ابن بطوطة يحب أن يواصل العبادة الى عشرين يوما فكان الشيخ يأمره بالرفق بنفسه فى العبادة وخرج ابن بطوطة فى تلك الفترة عن جميع ما عنده وأعطى ثيابه لفقير ولبس ثياب ذلك الفقير ، ولزم هذا الشيخ خمسة أشهر ويقول ابن بطوطة ولما بلغ السلطان خبر خروجى عن الدنيا استدعانى فدخلت عليه فى زى الفقراء فكلمنى أحسن كلام وألطفه وأراد منى الرجوع الى الخدمة فأبيت وطلبت منه الاذن فى السفر الى الحجاز فأذن لى فيه، وانصرفت عنه ونزلت بزاويته فاعتكفت بها شهر رجب وعشرة أيام

من شعبان وانتهيت الى مواصلة خمسة أيام وأفطرت بعدها على قليل من أرز دون ادام ، وكنت أقرأ القرآن كل يوم أتهجد بما شاء الله وكنت اذا أكلت الطعام آذانى فاذا حرمته وجدت الراحة وأقمت كذلك أربعين يوما ثم بحث عنى ثانية ٠

وفى مدينة كول يشهد ابن بطـــوطة غزوة وكان أهل المدينة قد أشرفوا على التلف بعد حصار الكفار لهم ولكن صاحب ابن بطوطة وهو سبق الحملة عليهم والكفار نحو ١٠٠٠ فارس وثلاثة آلاف رجل فقتلوهم عن آخرهم واحتوى المسلمون على خيلهم وأسلحتهم واستشهد من المسلمين ثلاثة وعشرون فارسا وخمسة وخمسون راجلا ٠ ولقد أسر ابن بطوطة مرة ويذكر فى كتابه محنته بالأسر وخلاصه من شدته على يدى ولى من أولياء الله تعالى ٠

كما أن ابن بطوطة كان يصف أهل البلاد التى يزورها وصفا دينيا ان صح هذا التعبير ـ فيقول مثلا واصفا شعبا معينا « وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وايمان صحيح ونية صادقة أكلهم حـــلال ودعاؤهم مجاب » ٠

ولما ولى ابن بطوطة القضاء بجزائر زيبة المهل ورأى أن نســـاءها لا يغطين رءوسهن ولا سلطانتهم تغطى رأسها ويمشطن شعورهن ويجمعنها الى جبهة واحدة ولا يلبس أكثرهن الا فوطة واحدة تسترهن من الصرة الى أسفل وسائر الجسد مكشوف ويمشين هكذا فى الأسواق جهد فى أن يقطع تلك العادة وأمرهن باللباس ولكنه أخيرا يقول : « فلم أستطع ذلك وكل مااستطعته هو انه كانت لاتدخل منهن امرأة فى خصومة الا مستترة الجسد وما عدا ذلك لم تكن لى عليهن قدرة » ٠

ولقد استقبح ابن بطوطة من السودانيات أثناء اقامته بالســـودان عرى النساء ودخولهن على السلطان غير مستترات ويقول « ولقد رأيت فى ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن من الطعام من قصر السلطان عرايا ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر » ٠ وان كان ابن بطوطة قد استحسن من السودان قلة الظلم فقد قال عنهم انهم أبعـــد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا فى شىء منه كما أن شمول الأمن فى البلاد بحيث لا يخاف المسافر فيها والمقيم من سارق ولا غاصب ومنها عدم تعرضهم لمن يموت ببلادهم من البيض ولو كان يملك القنـــاطير المقنطرة انما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه ٠ كما حيا ابن

بطوطة مواظبة أهل السودان على الصلوات والتزامهم لها فى الجماعات وضربهم أولادهم عليها واذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد لم يجد اين يصلى لكثرة الزحام ٠

ومن رؤى ابن بطوطة حكاية يقول فيها : « رأيت ليلة فيمـــا يرى النائم كأن انسانا يقول لى يا محمد ابن بطوطة لماذا لا تقرأ سورة يس فى كل يوم ، فمن يومئذ ما تركت قراءتها كل يوم فى سفر ولا حضر » ٠

هذه بعض الملامح الاسلامية فى تصرفات ابن بطوطة طيلة أيام رحلته تعطى ولو لمحة سريعة عن طبيعة هذا الانسان المؤمن بعقيدته ٠

ملامح ابن بطوطة الإنسانية

قال الشيخ أبو عبد الله فى مستهل حديثه ، كان خروجى من طنجة مسقط رأسى منفردا عن رفيق آنس بصحبته وركب أكون فى جملتـــه لباعث فى النفس شديد العزائم وشوق الى تلك المعاهد الشريفة فحزمت أمرى على هجر الأحباب من الاناث والذكور وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور وكان والدى بقيد الحياة فتحملت لبعدهما نصبا ولقيت من الفراق تعبا وسنى يومئذ ست وعشرون سنة ٠

ولو نسترجع الصورة نرى شابا يافعا فى مقتبل العمر يتمكن من أن يكون فردا خارجا لأداء فريضة غير هياب ولا وجل يكتم عواطفـــه بين جوارحه ويطير عن عشه الذى فيه أمه المحبة وأبوه الذى يتحمل من أجله النصب ويخرج قاصدا وجه الله الكريم ٠

وحينما يسلمه الطريق رفيق سفر تبرز فيه طبيعة اجتماعية حميدة فيرتحل مع الصديق ٠

ونلمح فى ابن بطوطة ملمحا انسانيا آخر آلا وهو احساسه بالظلم الذى يقع على الغير فهذه الغيرة الحميدة نذكرها له حين ينتزع ابن ســيد الناس ما ليس له فيقول ابن بطوطة « ان هذا أول ما شهده من ظلم عمال الموحدين وجميل أن يرفض الظلم تطبيقا للقول الكريم « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه « وابن بطوطة هنا يغيره بقلمه ٠

ولقطة أخرى نراها حينما يمرض ابن بطوطة بالحمى فى الطريق عند مدينة بجايا فيشير عليه أبو عبد الله الزبيدى بالاقامة فيها حتى يبرأ فيأبى ويصر اصرارا جميلا ذكر نصه من قبل وفى هذا ملمح انســـانى مشرف ٠

كان ابن بطوطة حساسا للكرم والبر فهناك حكاية صـــغيرة تكاد

تكون مختفية بين سطور كتابه عن نعله الذى تركه بباب فقيه قدمه له فيقول ابن بطوطة : « فأخجلنى بره واعتذرت اليه » ٠

وكان ابن بطوطة عبر الطريق يحس دوما أنه ضيف الله تشهد بذلك كلمات الألطاف الالهية وحينما كان يمنح منحة ما كان يقول : «ذلك ما فتح الله على به » ٠

وكان ابن بطوطة على ما يبدو ذوافة للطعام فيذكر مثـــلا الأكلة المفضلة له فى كل بلد حل به ويعدد الأصناف التى استمتع بها واصفا احساسه ذاكرا فوائدها ٠

وكان فى نفس الوقت الذى يتقبل فيه المنح والعطايا كريما يولم الولائم ويحبس لها ما بين يديه ويدعو لها اخوانه واصـــدقاءه كما كان يذكر من أضافه عبر رحلاته الكثيرة ٠

ولئن كانت القوة تذكر بالفخر للانسان القوى فان الضعف الانسانى لا شك شرف يفخر به الانسان أحيانا فلا أجمل من دمعة احساس تنحدر من عين غريب حين يحس أنه بعد عن الدار والأهل والرفقة وذلك ما أحس به ابن بطوطة عند وصوله الى مدينة تونس حين رأى المستقبلين يحيون زميله فى الطريق ويسلمون عليه ويسألونه عن حاله ولم يسلم عليه أحد منهم لعدم معرفتهم به فوجد من ذلك ما لم يملك معه ســـوابق عبرته فاشتد بكاؤه ولما شعر بحاله بعض الحجاج أقبلوا عليه بالسلام والايناس وما زالوا يؤنسونه بأحاديثهم ، ويذكر ابن بطوطة لمؤنسه هذه اليد فيقول فى ختام حكايته جزاه الله خيرا ٠

وحينما يعين ابن بطوطة قاضيا لركب الحجاز يذكر هذا الخبر بلا ضجيج أو طنطنة أو غرور ويسير قاصدا وجه الله وهو فى المقدمة رافعا العلم ٠

ويبدو أن هناك ملمحا هاما آخر لابن بطوطة ألا وهو تعدد الزيجات التى عقب عليها الامر الذى يؤكد أنه كان مزواجا وأول حكاية ترد عن زيجـاته تلك التى تذكر أن ابن بطوطة كان قد عقـد بصفاقس على بنت بعض أمناء تونس وبنى عليهـا بطرابلس ويذكر أنه قد وقعت بينه وبين صهره مشاجرة أوجبت فراق ابنته ٠ ثم يذكر أنه تزوج بنتا لبعض طلبة فاس وبنى عليها بقصر الزعافية ٠

وفى الجزء الثانى من الكتاب يذكر ابن بطوطة عن نساء جزيرة زيبة المهل وعوائدهم أنه قد تزوج نسوة بها فأكل مع بعضهن بعد محـــاولة وبعضهن لم يأكل معه ولا استطاع ابن بطوطة ان يراها تأكل ولم تنفعه

حيلته فى ذلك • وتهمنا هنا كثرة الزيجات التى نستدل بها على هـــذه الخاصية فيه •

ويقول انه اتفق فى الثانى من شوال مع الوزير مانايك على تزوج بنته فبعث الى الوزير جمال الدين أن يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر فاجيب الى ذلك وحضر الناس وأبطأ الوزير فاستدعى فلم يأت ثم استدعى مرة ثانية فاختذر بمرض البنت وقال الوزير سرا لابن بطوطة ان ابنته امتنعت وهى مالكة أمر نفسها والناس قد اجتمعوا فهل لك أن تتزوج بربيبة السلطان التى تكون زوجة السلطان زوجة أبيها وهى التى ولده متزوج بنتها فقال نعم فاستدعى القاضى والشهود ووقعت الشهادة ودفع الوزير الصداق ورفعت الى ابن بطوطة بعد بضعة أيام •

وليس لـ تعليق على ابن بطوطة الا أن اصفه بأنه الرجل الذى لم يرفض زيجة قط •

ويحكى ابن بطوطة شيئا عن أخلاق هذه السيدة فيقول انها كانت من خيار النساء وبلغ من حسن معاشرتها أنها كانت اذا تزوج عليها ابن بطوطة تطيبه وتبخر أثوابه وهى ضاحكة لا يظهر عليهـــا تغير ما وبعد صفحتين فقط من الجزء الثانى فى كتاب ابن بطوطة يذكر أنه تزوج زوجة أخرى بنت وزير معظم كان جده السلطان داود حفيـــد السلطان أحمد شنيرازه ويستطرد فيقول انه تزوج زوجة كانت تحت الســلطان شــهاب الدين ويقول ابن بطوطة : وعمرت ثلاث ديار بالبساتين الذى أعطانيـــه الوزير وكانت الرابعة وهى ربيبه الوزير عبد الله تسكن فى دارها ويقول ابن بطوطة انها كانت أحبهن اليه ولما صاهر من ذكره هابه الوزير •

ومن مواقف ابن بطوطة نعرض هذه اللوحات لنلقى الضوء على ابن بطوطة الانسان الشجاع الواثق بالنفس فلقد بعث الســـلطان الى ابن بطوطة رسوله فذهب معه الى باب يعرف بباب السر صعد منه الى موضع لا فرش فيه لأجل ما فيه من الحزن والسلطان جالس فوق مخدة وبين يديه آنيتان قد غطيتا احداهمامن الذهب والاخرى من الفضة وكانت بالمجلس سجادة خضراء فرشت لابن بطوطة بالقرب منه وقعد عليها وليس بالمجلس الا حاجبه الفقيه محمود ونديم له لا يعرف اسمه فسأل الســـــلطان ابن بطوطة عن حاله وبلاده وسأل عن الملك الناصر وبلاد الحجـــاز فأجابه ابن بطوطة عن ذلك ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد فقال السلطان لابن بطوطة : هذا مولانا فضيم والفقيه ببلاد الاعاجم كلها ثم أخـــذ فى الثناء على الفقيه المذكور وظهر لابن بطوطة أن السكر غالب عليه وكان

قد عرف بدمانه على الخمر ثم قال السلطان باللسان العربى الذى كان يحسنه لابن بطوطة تكلم فقال له ابن بطوطة « ان كنت تسمع منى أقول لك أنت من أولاد السلطان أتابك أحمد المشهور بالصلاح والزهد وليس فيك ما يقدح فى سلطانك غير هذا وأشرت الى الآنيتين فخجل السلطان من كلامه ، ولما سكت ابن بطوطة وأراد الانصراف أمره السلطان بالجلوس وقال له ان الاجتماع مع أمثالك رحمة » ٠

اتفق فى بعض الأيام أن عبدا من عبيد السلطان جلال الدين شكته زوجته الى الوزير وأعلمته أنه عند سرية من سرارى السلطان يزنى بها فبعث الوزير الشهود ودخلوا دار السرية فوجدوا الغلام نائما معها فى فراش واحد وحبسوهما فلماأصبح ابن بطوطة وعلم بالخبر توجه الى المشور وجلس فى موضع جلوسه ولم يتكلم فى شىء من أمر الحادثة فخرج اليه بعض الخواص يقول : « يقول لك الوزير ألك حاجة ؟ ٠٠ » فقال ابن بطوطة لا ٠ وكان الرجل يقصد أن يتكلم ابن بطوطة فى شأن السرية والغلام اذ كانت عادته ان لا تقطع قضية الا اذا حكم فيها فلما وقع التغير والوحشة بينه وبين الوزير قصر فى ذلك وانصرف ابن بطوطة الى داره بعد ذلك ٠٠ ويقول وجلست بموضع الاحكام فاذا ببعض الزوار يقول لأحدهم يقول لك الوزير انه وقع البارحة كيت وكيت لقضية السرية والغلام فاحكم فيها بالشرع فقلت له هذه قضية لا ينبغى أن يكون الحكم فيها الا بدار السلطان وعاد الى دار السلطان واجتمع الناس وأحضرت السرية والغلام وأمر ابن بطوطة بضربهما الى الخلوة وحبس الغلام وانصرف الى داره فبعث الوزير اليه جماعة من كبراء ناسه فى شأن تسريحه الغلام فقال لهم ابن بطوطة « أتشفعون فى غلام زنى يهتك حرمة مولاه وأنتم بالأمس خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله دار غلام له » وأمر ابن بطوطة بالغلام بعد ذلك فضرب بقضبان الخيزران وهى أشد وقعا من السياط وشهر الغلام بالجزيرة وفى عنقه حبل وذهب الناس الى الوزير وأعلموه فقام وقعد واستشاط غضبا وجمع الوزراء ووجوه العسكر وبعث الى ابن بطوطة فجاءه ويقول : « وكان عادتى أن أخدم له فلم أخدم وقلت سلام عليكم ثم قلت للحاضرين اشهدوا على انى قد عزلت نفسى عن القضاء لعجزى عنه فكلمنى الوزير فصدرت عنه وجلست بموضع أقابله فيه وجاوبته أغلظ جواب وأذن مؤذن المغرب فدخل الى داره وهو يقول ويقولون : انى سلطان وها أنذا طلبته لأغضب عليه فغضب على » ٠

هذه هى بعض الملامح الانسانية تبرز من بينها المواقف لنخلص منها بالسؤال أين يقف الرجل وكيف ؟ ومن الاجابة نعرف من هو الرجل ٠

خاتمة

وفى النهاية ماذا نملك أن نقول بعد أن وضحت أمامنا الأسباب والدوافع وطبيعة العصر التى دفعت بالكثيرين من العلمـــاء للرحيل فى الأرض يصورونها ويكتبون عنها ٠

وبعد أن تعرفنا الى شخصية هذا الرحالة الكبير الذى سار ربع قرن من الزمان مرتحلا متأملا مدققا النظر عالما مسلما قاضيا جليلا موقرا فى كل أرض رحل اليها وحل بها وفى كل منزل ينزل به ٠

وبعد أن تتبعنا المراحل التى مر بها كتابه الفريد الذى حظى باهتمام الشرقيين والمستشرقين والدارسين « تحفة النظار فى غرائب الأمصـــار وعجائب الاسفار » ٠

وبعد أن سرنا مع ابن بطوطة خطوة خطوة ، طريقا طريقا ، مدينة مدينة ، ورأينا كيف صور هذا الرجل بالعينين اللماحتين المصـــورتين الواسعتين بالاضافة الى ذاكرته المذهلة وقدرته على الالتقـــاط والتحديد للزمان والمكان والمناخ والظروف والحال النفسية التى يكون عليها ملمحا للملامح الطوبوغرافية التى يتواجد فيها وعبر كل طريق يورد الحكايات النابعة من الموقف والشبيهة بها كما كان يذكر دوما هدفه من كل خطوة مستفيدا من موهبته كشاعر حافظا للكثير من الأبيات ناقلا احساســه بالأمكنة حريصا دوما على اعطاء صورة واقعية موردا للكثير من الأقوال التى يمكن أن تسمى بالشئون الخاصة ساعيا للقاء العلماء للاستماع اليهم واصفا لهم كما وصف المدن عاقدا المقارنات مثبتا للأرقام والاحصائيات ملتقطا بحساسية لكل ما يتعلق بالشعائر الدينية والأيام الاسلامية مصورا العادات والتقاليد والملامح الاجتماعية مصغيا لكلمات الناس ذاكرا كيفية نطقهم لها سائلا مستفسرا راجعا للأصول والجذور بنزعة مثقفة واعيـــة بلغت حد الجلوس للدرس ٠

درس ابن بطوطة علوم الدين وتعلم اللغات ثم صور كل الخلجات واللمحات والأمارات فى كل مدينة والعلامات فوق كل طريق ٠

وبعد أن قدمنـــا أهم المدن التى زارها ابن بطوطة وأبرزنا أهم ملامحها العمرانية المميزة وبعد أن انتقلنا للناس وعاداتهم وتقـــاليدهم وعشنا معهم وبعد أن قابلنا قمم الناس العالمة والدينية والمتفقهة غير ناسين أفضل الأيام والليالى الاسلامية ٠

وأخيرا حددنا ملامح الشكل السياسى للمجتمع الاسلامى من خلال سلاطينه وملوكه والنعوت والصفات التى أضفيت على هؤلاء الســلاطين والملوك ٠

نقدم هذا البحث مستهدفين تبيان عزة العالم العربى الاسلامى فى عصر ابن بطوطة حتى يدرك الشباب العربى فى كل أقطار الوطن العربى الكبير أى رجل كبير كان ابن بطوطة ليخرج الى عالم اليوم كثير يسيرون على هديه ويحتذون حذوه ٠

راجين أن تكون هذه الدراســة التى اســتهدفت التعريف بالرجل والعصر قد أدت دورها المرجو والله الموفق ٠

كفر الشيخ صيف ١٩٦٣

المراجـع

١ ـ تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . ابن بطوطة ـ المطبعة الخيرية (١٣٢٢ هـ)

٢ ـ ابن بطوطة فى العالم الاسلامى . د . ابراهيم العدوى (سلسلة اقرأ دار المعارف العدد رقم (١٤٤)

٣ ـ الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى . د . زكى حسن

٤ ـ الجغرافيون العرب . مصطفى الشهابى ـ سلسلة اقرأ دار المعارف ـ العدد رقم ٢٣٠

٥ ـ بلدان الخلافة الشرقية . لسترنج (من مطبوعات المجمع العلمى العراقى) .

٦ ـ تاريخ الترك فى آسيا الوسطى . و . برتولد (نشرات الأنجلو المصرية) .

٧ ـ أطلس التاريخ الاسلامى .

٨ ـ من حديث السندباد القديم . للدكتور حسين فوزى

استدراك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢	٢	Brod way's	Broad way's
١٤	٢	القدسى	المقدسى
١٤	١٩	ايزح	ايذج
١٤	٢٢	عمرو	عمر
١٥	١٣	اللاندره	اللارندة
١٥	١٤	بلاكسرى	بلى كسرى
١٥	١٥	قصطمنية	قصطمونية
١٧	٩	بسوادق	بسوداق
١٩	٢٥	البرارى	البرابى
٢٠	١٩	ثراف	سراف
٢١	٤	جنوبيين	جنويين
٦٤	١١	الخدع	الخلع

ايضاح

١٥	٢٠	قلقوت =	كلكتا الميناء الهندى
١٧	٩	قاليقوط =	

اضافات

١٧	٢٢	بعد كلمة الناصر (محمد بن قلاوون)
٢٠	٣	بعد كلمة ذلك (فى ستمائة سنةفان الهدم أيسر من البقاء)
٢٠	٢٦	بعد كلمة الآن (أبسمى)

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

العدد ١٤٧
ـــص ـــ
الثمن
١٩٦٧/٢/١٥